موسوعة الحضارة المسيحية

جورج فيليب الفغالي
عميد ركن ـ ماجستير في التاريخ

موسوعة

الحضارة المسيحية

المجلّد السادس

المسيحية والإسلام

دار نوبليس

اسم الموسوعة:	**موسوعة الحضارة المسيحية**
اسم الكتـــــاب:	المسيحية والإسلام
اسم المؤلــف:	جورج فيليب الفغالي - عميد ركن
قيـاس الكتـاب:	24 × 17
عدد الصفحات:	168
عدد صفحات الموسوعة:	4304
مكـان النشــر:	بيروت
دار النشر والتوزيـــــع:	دار نوبِليس
تلفاكس:	961 (1) 58 34 75
هاتــف:	961 (1) 58 11 21 - 961 (3) 58 11 21
صندوق بريـد:	70 69 16 بيروت لبنان
بريد إلكتروني:	info@nobilis-int.com
الطبعة الأولـى:	2010

EAN 9786144030653

ISBN 978-614-403-065-3

القسم الأول

المسيحية من العصر الفاطمي

إلى العصر الأيوبي

(969 ـ 1250)

الفصل الأول

دور المسيحيين الأقباط ونصارى بلاد الشام في العهد الفاطمي

(969 - 1174)

1 - توطئة

إنها دويلات على أنقاض الدولة العباسية. كانت الأندلس أول دولة استقلت عن الدولة العباسية، إذ أقام فيها عبد الرحمن الداخل دولة كبيرة في أوائل العصر العباسي، ثم تأسست دولة الأدارسة في مراكش، ودولة الأغالبة في تونس أيام الرشيد. وقامت الدولة الطاهرية في خراسان في عهد المأمون.

وعلى أثر ضعف الخلفاء العباسيين في بغداد، واستبداد الأتراك بالحكم، زادت حركة الخروج على الدولة العباسية، فاستقلّ الطولونيون في مصر (868 - 905) ثم خلفهم الأخشيديون (935 - 969) وظلّوا فيها إلى أن فتحها الفاطميون السنة 969.

كذلك قامت في بلاد فارس وبلاد ما وراء النهر دويلات عدة أهمها

الدولة الصفارية، والدولة السامانية، والدولة البويهية، والدولة الغزنوية. ونشأت في الشام الدولة الحمدانية. وكانت آخر دولة حكمت العراق في عهد العباسيين هي الدولة السلجوقية.

2 - الفاطميون وإنشاء الدولة

21 - الفاطميون في تونس

عندما ثار الشيعة على أيام الخليفة أبو جعفر المنصور وأعلنوا عداءهم للعباسيين، بطش بهم أبو جعفر، ولكن بعض أفراد منهم استطاعوا أن يفلتوا من بين يديه وأن يلجأوا إلى شمالي أفريقيا حيث أقاموا فيها ونشروا دعوتهم الشيعية بين أبنائها، بعيداً عن مركز الخلافة العباسية ورقابتها.

ظهر رجل من صنعاء اسمه أبو عبد الله الحسين الشيعي في شمالي أفريقيا، السنة 901 ودعا للفاطميين، أي لأولاد الإمام علي من فاطمة ابنة النبي محمد وجهّز هو وأتباعه جيشاً كبيراً واستطاع أن يقضي على دولة الأغالبة في تونس، ثم دعا إلى مبايعة عبيد الله المهدي خليفة فبايعه الناس.

أسس أول الخلفاء الفاطميين، مدينة «المهديّة» واتخذها عاصمة له، وانتشر سلطانه في بلاد المغرب فدانت له معظم القبائل. وقد حاول فتح مصر فلم يفلح، وكذلك حاول الاستيلاء عليها كل من جاء بعده من الخلفاء الفاطميين، فأخفق ابنه «القائم» وحفيده المنصور في محاولتهما. ونجح الخليفة الفاطمي الرابع «المعتزّ»، ابن المنصور، فتمّ فتح مصر في عهده[1].

22 - الفاطميون في مصر

امتدّ سلطان «المعزّ» من المحيط الأطلسي غرباً إلى حدود طرابلس الغرب شرقاً، كما استولى على جزيرة صقلية في البحر المتوسط. وطمح أن يستولي على مصر، لتكون مركزاً للدعوة الفاطمية، فمصر قريبة من الحواضر العربية الكبرى كدمشق

(1) المصور في تاريخ لبنان، دار العلم للملايين - بيروت 1969، ج6، ص 98.

والمدينة وبغداد، وهي غنية بخصبها ونيلها، ثم إنه رآها ترتع في فوضى بعد وفاة كافور الإخشيدي، من أجل ذلك كله، أرسل قائده جوهر الصقلي المسيحي على رأس جيش كبير للاستيلاء على مصر. فتم فتحها بسهولة، لأن أهلها رأوا في الجيش الفاطمي منقذاً من الفوضى والقحط الذي انتاب البلاد لسوء تدبير الإخشيديين. فقطع الخطبة يوم الجمعة للخليفة العباسي، وجعلها للمعزّ الفاطمي، وضرب النقود باسمه ووزع مناصب الدولة على الفاطميين القادمين معه. وأنشأ عاصمة جديدة (969) دعاها «القاهرة المعزية». وفي سنة 970 وضع أساس الجامع الأزهر الذي تم بناؤه السنة 972، بغية نشر الدعوة الفاطمية الشيعية وقد أصبح جامعة كبرى يتلقى فيها الطلاب مختلف العلوم.

فقبل إعلان الخلافة الفاطمية بوقت قصير، نجح الزيديون في إقامة دولة في طبرستان السنة 864، وفي اليمن السنة 897، كما استولى القرامطة على جنوب العراق والبحرين والإحساء. وبعد 30 سنة نجح البويهيون الشيعة في فرض سيطرتهم على بغداد، مركز الخلافة السنية. في هذه الأثناء بالضبط، أسس الفاطميون دولتهم وعملوا على تقويتها قبل أن يشرعوا في تنفيذ اختيارهم الستراتيجي في الانطلاق نحو الشرق. وعندما انطلقوا سيطروا على مصر وأعلنوا خلافتهم التي امتدت قرابة مئتي عام انتهت بأن أسقط صلاح الدين الأيوبي آخر وزراء الخلافة الفاطمية، وأمر بالدعاء للخليفة العباسي في الجامع الأزهر بالقاهرة.

23 - تغيير «كيفي» للسلطة في مصر

لم يكن الحكم الفاطمي لمصر مجرد تغيير لفئة حاكمة بأخرى، مثلما هو الحال بالنسبة إلى الطولونيين أو الإخشيديين، بل كان انقلاباً سياسياً واجتماعياً وثقافياً[1]، فلم تعد مصر

(1) أيمن فؤاد سيد، الدولة الفاطمية في مصر، تفسير جديد، الدار المصرية اللبنانية، 1992، ص 74.

ولاية تابعة للخلافة بل أصبحت مقرّ خلافة، بما لذلك من تداعيات مادية وثقافية وروحية.

وصل الفاطميون ومعهم ثروات طائلة، أنهت التدهور الاقتصادي الذي صاحب نهاية الحكم الإخشيدي، وأعادوا الأمان إلى البلاد. وبطل إرسال الخراج أو الجزية خارج القطر المصري. ثم وسّعوا شبكة الري للنيل وأنشأوا إدارة خاصة للإشراف على أمور الزراعة، كما احتكروا بعض الصناعات وخاصة المتعلقة باحتياجات الجيش. وكانت الدولة نفسها «أكبر مستهلك في أسواق البلاد وأكبر تاجر». حددت أسعار السلع وكثيراً ما لجأت السلطة إلى مصادرة الغلال من تجارها وبيعها بأسعارها جبرية[1].

لقد امتدت الخلافة من المغرب حتى الشام والحجاز واليمن. وسيطر الفاطميون على التجارة الخارجية لهذه المناطق، وبهذا ازدهرت البلاد تحت حكمهم.

أما على الجانب الثقافي والروحي، فإن الفاطميين الذين تزعموا حركة دينية فلسفية اجتماعية شيعية، كان هدفها تحويل كل الإسلام وتجديده[2] قد أحدثوا هزة قوية للمجتمع السني، مما انعكس على سياسة الفاطميين في التعامل مع السنيين وغير المسلمين على حد سواء.

3 - الخلافة الفاطمية والكنيسة

منذ الفتح العربي لمصر بقيادة عمرو بن العاص، استقلّت النوبة سياسياً عن مصر وقبلت بدفع الجزية السنوية المعروفة بـ «البقط» للسلطة الإسلامية في مصر. ظل هذا الوضع قائماً كما هو طوال حكم الفاطميين، كما لم يتدخل هؤلاء في علاقات الكنيسة القبطية بملوك النوبة أو

(1) أحمد صادق سعد، تاريخ المصر الاجتماعي الاقتصادي، دار ابن خلدون، بيروت 1979، ص 255.

(2) أيمن فؤاد سيد، م.س.، ص 74.

الحبشة. فعلى سبيل المثال لم يتدخل الفاطميون في المراسلات التي تمت لإعادة العلاقات بين الكنيسة القبطية والكنيسة الحبشية والتي تمت بوساطة ملك النوبة وقت خلافة العزيز[1] الذي لم يحصر الحكم بالمسلمين دون سواهم فولّى عيسى نسطوريوس المسيحي الوزارة وجعل أبا الفتح منصور النصراني طبيبه وأنزله منزلة سامية في الدولة[2]. وكثر عدد النصارى في الدواوين ومناصب الحكم واستأثروا بشيء كثير من السلطة والنفوذ. وكان الفاطميون يشجعون إقامة الكنائس والأديار بل ربما تولّوا إقامتها بأنفسهم. وكانت زوجة العزيز وأم ست الملك امرأة رومية أرثوذكسية. وكان لها على أيام زوجها نفوذ كبير في الدولة. وكانت ابنتها ست الملك حازمة عاقلة بصيرة في الأمور، فأحبّها العزيز وأصغى إليها واستمع إلى نصحها فكان لها أثر ظاهر في توجيه سياسته نحو النصارى. وكان لست الملك خالان رفعهما العزيز بتدخله في شؤون الكنيسة إلى الذروة فجعل أحدهما أورسطيوس، بطريركاً على أورشليم (984 - 1005) والآخر، ارسانيوس متروبوليتاً على القاهرة ثم بطريركاً على الإسكندرية.

إنما في عهد الخليفة الحاكم بأمر الله (996 - 1020)، منعت السلطة سفر الأساقفة المصريين إلى النوبة أو الحبشة، كما منعت إرسال خطابات بطريرك الكنيسة القبطية إلى هناك لأعوام عدة[3]. كما أنه لم يرَ في النصارى مادة للمذهب الذي دعا إليه فشجعهم على النزوح إلى أراضي الروم في أنطاكية وشمالي سوريا. وهدم كنيسة القيامة في أيلول 1009 وكذلك الكنيسة المريمية في دمشق.

---

(1) - المسيحية عبر تاريخها في المشرق، م.س.، ص 527.
- ابن العبري، مختصر الدول، ص 316.

(2) المرجع نفسه.

(3) سلام شافعي محمود، أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الأول، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة 1995، ص 282.

لقد لعب بطاركة الأقباط دوراً كبيراً في التوصيه، وبناء على طلب الخلفاء الفاطميين، لدى ملوك النوبة برعاياهم المسلمين[1]. كما أنهم ساهموا في استمرار وصول الجزية السنوية من النوبة. وتقول حوليات ذلك الزمان أن الخليفة المستنصر (1036 - 1094) أرسل حملة إلى بلاد النوبة هدفها مضاعفة الجزية. ويقال إن البطريرك القبطي أرسل إلى هذا الملك يوصيه بدفع الجزية بعد أن كان قد أوقفها. فوزير المستنصر اليازوري قبض على البطريرك وأغلق العديد من الكنائس وطلب الأموال فدية عن الكنيسة ورئيسها[2].

كان للأقباط دورهم المحوري في تأمين حدود مصر الجنوبية لمصلحة الخلافة الفاطمية، من خلال علاقتهم بكنيستي النوبة في الحبشة. كما كان للروم المسيحيين دور في تأمين الحدود الشمالية الشرقية.

ففي الوقت الذي كان الفاطميون يثبتون أرجلهم في الأرض المصرية، كان البيزنطيون قد استولوا على الكثير من المدن والحصون في شمال الشام وبدأوا حصار أنطاكية. ومن ثم كان على الفاطميين توجيه جهودهم الحربية نحو الشام، فظلت الحرب دائرة بين الفاطميين من جانب وأعدائهم البيزنطيين والقرامطة من جانب آخر.

على أيام الحاكم بأمر الله، ظهر في القاهرة في 30 أيار 1017، حمزة بن علي بن أحمد الزوزني. وكان فارسياً، أبصر النور في زوزن، ثم هاجر إلى مصر وانضاف إلى المقامات الربانية «واشتهر بخدمة الحاكم قبل التجريد وبعد التجريد فأضيفت النذر ودعاتهم إليه. واستمر في مصر حتى حلّت الثامنة وأربع مئة فكشف التوحيد

(1) المرجع السابق، ص 286.

(2) المسيحية عبر تاريخها في المشرق، م.س.، ص 528.

(3) سلام شافعي محمود، م.س.، ص 250.

في أول يوم من المحرم (30 ايار 1017) ودعا الخلائق إلى التوحيد. وكانت دعوته تخييراً لا تكليفاً»[1].

فصدر سجل بإبطال السجلات التي صدرت من قبل في حق النصارى ورفع الفروض التي ضربت عليهم وأطلق الحرية لهم في إعادة بناء الكنائس وعودة من أسلم منهم إلى النصرانية. وقد حفظ لنا يحيى ابن سعيد الأنطاكي نص سجلّين بهذا المعنى أحدهما موجّه إلى رئيس دير طورسينا الأنبا سليمان، والآخر إلى نيقيفوروس بطريرك أورشليم وخلف ثيوفيلوس وهذا نصه:

«بسم الله الرحمن الرحيم. أمر أمير المؤمنين بكتابة هذا المنشور لينقيفور بطريرك بيت المقدس بما رآه من إجابة رغبته وإطلاق بغيته من صيانته وحياطته والذي عنه وعن أهل الذمة من نحلته وتمكينهم من صلواتهم على رسومهم في افتراقهم واجتماعهم وترك الاعتراض لمن يصلي منهم في عرصة الكنيسة المعروفة بالقيامة وخربتها على اختلاف رأيه ومذهبه ومفارقته في دينه وعقيدته وإقامة ما يلزمه في حدود ديانته وحفظ المواضع الباقية في قبضته داخل البلد وخارجه والديارات وبيت لحم ولد وما برسم هذه المواضع من الدور المنضوية إليها والمنع من نقض المصلبات بها والاعتراض لإحباسها المطلقة لها ومن هدم جداراتها وسائر ابنيتها إحساناً من أمير المؤمنين إليهم ودفع الأذى عنهم وعن كافتهم وحفظاً لذمة الإسلام فيهم. فمن قرأه أو قرئ من الأولياء والولاة ومتولي هذه النواحي وكافة الجمات وسائر المتصرفين في الأعمال والمستخدمين على سائر منازلهم وتفاوت درجاتهم واستمرار خدمتهم أو تعاقب نظرهم في هذا الوقت وما يليه فليعلم ذلك من أمير المؤمنين ورسمه ويعمل عليه وبحسبه وليحذر من تعدى حده ومخالفته حكمه ويتجنب مباينة

(1) رستم، م.س.، ص 208.

نصه ومجانية شرحه. وليقر هذا المنشور في يده حجة لمودعه يستعين بها على نيل طلبته وإدراك بغيته إن شاء الله تعالى[1]».

31 - الحاكم بأمر الله وسرّ الافخاريستية

جدّد الحاكم بأمر الله في أيار السنة 1011، منع الناس عن صنع النبيذ وشربه سراً وجهراً وحطم ما عند الناس منه من الجرار والدنان وحذّر على النصارى تقديمه «في سائر مملكته» ومنعه في قرابينهم فقربوا عوضاً عنه ماء نقع فيه زبيب أو عود الكرم[2].

في السنة 1021، انتهى حكم الحاكم ونودي بابنه الظاهر فعادت السيدة ست الملك إلى سابق عزها، فأوفدت نيقيفوروس بطريرك أورشليم إلى القسطنطينية ليعلم باسيليوس «بعودة الكنائس وتجديد كنيسة القيامة المقدسة وسائر البيع في جميع بلاد مصر والشام ورجوع أوقافها إليها واستقامة أمور النصارى»[3]، ويرجوه السماح بالإتجار بين البلدين والشروع في «المسالمة والموادعة».

32 - النصارى في أيام الخليفة الظاهر الفاطمي والمستنصر باسم الله

بعد اختفاء الحاكم بأمر الله، استلم الحكم ابنه الظاهر الذي أصدر أوامره بترك الفساد وحفظ مجاورة الروم الذين وافقوا على هذه المهادنة. واتفق الطرفان على أن يرسل الظاهر موفداً من عنده للاجتماع مع رسول الإمبراطور البيزنطي رومانوس في ناحية انطرطوس «آخر حدّ الروم وأول بلد

---

(1) تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكي، ص 230 - 231.
رستم، م.س.، ص 209.

(2) رستم، م.س.، ص 217 - 218.
- موسوعة عالم الأديان، ج9، م.س.، ص

(3) المرجع نفسه.

المسلمين». واشترط رومانوس على الظاهر ثلاثة شروط هي:

أ - أن يعيد بناء كنيسة القيامة في القدس ويجددها من ماله وأن يقبل بإعادة البطريرك إلى هذه المدينة وأن تعمّر النصارى جميع الكنائس التي «خرّبت أو دُمّرت في بلاد الظاهر».

ب - ألا يتعرض الخليفة لمدينة حلب وضواحيها في بلاد الشام.

ج - ألا يساعد ويعاضد صاحب جزيرة صقلية.

وبناء على الشرط الثاني، أرسل نصر بني صالح بن مرداس، صاحب حلب، مال الهدنة إلى رومانوس، الإمبراطور البيزنطي وخصلة من شعر رأس القديس يوحنا المعمدان. وكان هذا الشعر في سالف الزمان موجوداً في كنيسة حمص، فنقل منها إلى كنيسة القلعة في حلب «إشفاقاً عليه من أخذ الروم له عند ترددهم إلى حمص».

وبقي هناك إلى أن خرج منصور بن لؤلؤ من حلب، فاستعاده نصر بن صالح وتقرّب به إلى رومانوس، فإضافة إلى الآثار المقدسة التي كانت في بلاط الملك[1].

رغم كل ما ورد سابقاً، لم تنتهِ الممارسات تماماً ضد المسيحيين. ففي عهد هذا الخليفة (الظاهر 1021 - 1036)، تقرر بناء سور لمدينة القدس «فخرّب المتولون لعمله كنائس كثيرة في ظاهر المدينة، وأخذت حجارتها، وعوّلوا على نقض كنيسة صهيون وكنائس غيرها ليحملوا حجارتها إلى السور»[2]. ولم تتم إعادة بناء كنيسة القيامة إلا في عهد الخليفة الفاطمي الثامن، المستنصر باسم الله (1036 - 1094) الذي «هادن ملك الروم فاشترط عليه، هذا الأخير، أن يعمّر بيعة القيامة مقابل إخلاء الروم خمسة آلاف أسير، وقد أرسل ملك الروم من عمّرها وصرف عليها مالاً جزيلاً»[3].

(1) رستم، م.س.، ص 220.

(2) الأنطاكي يحيى بن سعيد، كتاب الذيل، طبعة بيروت، دون تاريخ، ص 272.

(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص 159.

4 - بداية ضعف الخلافة الفاطمية

في هذا الوقت، عجز خلفاء الحاكم بأمره عن فرض الاستقرار والأمن في الديار المصرية وعن المحافظة على السيادة الفاطمية في المناطق التي امتد إليها حكم هذه الخلافة، فخسروا حلب بعد موت الحاكم بسنتين، عندما انتزعها منهم المرداسيّون، وهم من الشيعة، وقد أسسوا دولة عربية شيعية بين 1023 و 1079، على أنقاض الدولة الحمدانية في حلب، انطلقت من وادي الفرات وشملت حلب ومنبج وبالس والرقة والرحبة ثم حمص وصيدا وبعلبك وطرابلس، وامتدت إلى عانه، وملكت جميع وادي الفرات الشامي.

في السنة 1071 سقطت مدينة القدس، وهي كبرى مدن سوريا الجنوبية التي كان الفاطميون قد بسطوا سلطتهم عليها، سقطت في أيدي السلجوقيين. وتبعها في السنة 1076 مدينة دمشق. وما أن تمكّن الفاطميون من استرجاع القدس في السنة 1098، ويقال في السنة 1096، حتى عادوا فخسروها بعد سنة لتقع هذه المرة في أيدٍ لم يحسب لها من حساب: أيدي الفرنجة الصليبيين.

5 - الأقباط في السياق الاجتماعي والاقتصادي والفني في الخلافة الفاطمية

شكّل المسيحيون ثلث (1/3) سكان مصر آنذاك[1]، أغلبهم من الأقباط الذين ينتمون إلى الكنيسة القبطية الأرثوذكسية، وعدد قليل من الروم الذين ينتمون إلى الكنيسة البيزنطية، وعدد من الأرمن الأرثوذكس الذين وفدوا إلى الديار المصرية في العصر الفاطمي.

انتشر الأقباط في الأراضي المصرية كلها، كما تواجدوا في كافة الطبقات الاجتماعية بعدما تحولوا إلى

(1) سلام شافعي محمود، م.س.، ص 28.

اللغة العربية. وساهم هذا التحول بشكل أساسي في الاندماج الثقافي والحضاري بين الأقباط والمسلمين وفي استمرارية هؤلاء وكنيستهم الأرثوذكسية كواقع مميز للحياة المصرية عبر كل العصور، وهذا ينعكس في العناصر الثلاثة التالية:

أولاً: الأقباط في الإدارة العليا للخلافة

ثانياً: التسامح الديني

ثالثاً: دور الأقباط في قوى الإنتاج في هذا العصر.

51 - استخدام الأقباط في الإدارة العليا للخلافة

لما احتل جوهر الصقلي، الرومي الأصل، الديار المصرية، حاول أن يستبدل الإدارة المحلية للبلاد بالمغاربة المسلمين القادمين معه[1]، لكنه لاحظ أن الفاطميين ما لبثوا أن توسّعوا في استخدام غير المسلمين، لا سيما الأقباط، في إدارة شؤون الدولة. وهذا يعود إلى أن الفاطميين الشيعة وجدوا أنفسهم في محيط سنّي عدائي، فلم يجدوا مناصاً من أن يعتمدوا على غير المسلمين الذين شكلوا أقلية نشيطة لها خبرتها الجيدة في الإدارة الحكومية، فأبعدوا أهل السّنة عن الوظائف العليا واستعملوا الأقباط[2] بشكل كبير وكثيف في العصر الفاطمي الأول، عصر الخلفاء الأقوياء. أما في العصر الثاني، عصر الوزراء، فتراجع وجودهم حتى مجيء آخر وزراء الخلافة، الناصر صلاح الدين الأيوبي، الذي أخذ بفتوى القاضي البيساني بألا يستخدموا النصارى نظّار أموال ولا مشارفين[3]. وفي هذا العصر الأخير، لا نجد في الإدارة العليا للبلاد سوى بهرام الأرمني، وهو الوحيد النصراني

---

(1) المقريزي، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق جمال الدين الشيال، ج1، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، 1967، ص 119.

(2) أيمن فؤاد سيد، م.س.، ص 77.

(3) المسيحية عبر تاريخها في المشرق، م.س.، ص 530.

الذي تولى الوزارة في خلافة الحافظ، بعد سلسلة من الاضطرابات. وقد نعته الخليفة هذا بـ: «سيف الإسلام تاج الخلافة» وهو باقٍ على نصرانيته. بينما إذا عدنا إلى العصر الأول نرى تسعة من الوزراء والوسطاء غير المسلمين، 3 يهود و3 من الروم و3 من الأقباط[1].

وكان للخلافة الفاطمية 14 ديواناً أشرف على بعضها وعمل فيها العدد الكبير من الأقباط، مثل ديوان المجلس وهو أصل الدواوين وبه كل علوم الخلافة، تولّى إدارته مسيحيون أقباط في أكثر الأحيان وكذلك ديوان النظر، رأس دواوين الأموال. أما في بقية الدواوين فقد كان الأقباط كثرة مثل ديوان التحقيق وغيره.

أما في بقية الوظائف فقد انخرط الأقباط كموظفين عاديين في كافة شؤون الدول، مثل الزراعة - وتحديد الأراضي الزراعية وتقسيمها تمهيداً لجباية ما عليها من خراج. وكذلك دخلوا ككتبة في الدواوين وأصحاب خبرة في النواحي الإدارية. فكان منهم المساحون والأدلاء والقصابون.

52 - العلاقات الإسلامية المسيحية - التسامح الديني

مما لا شك فيه، ومن خلال قراءاتنا التاريخية، يمكننا أن ننعت الفترة الفاطمية بأنها نموذج للتسامح الإسلامي مع غير المسلمين لعدة أسباب منها:

- ازدياد وجود الأقباط والروم في المناصب الإدارية العليا للخلافة، وتحديداً في عصر الخلفاء الأقوياء، خاصة وأن هؤلاء لم يشترطوا على النصارى اعتناق الدين الإسلامي في حال قبل دخولهم في مناصب الدولة، باستثناء عصر الحاكم بأمر الله، حتى

(1) أيمن فؤاد سيد، م.س.، ص 193.
- المقريزي، م.س.، ج1، ص 438.
- منصب الوساطة استحدثه الخليفة العزيز بالله، كي يعيّن عيسى بن نسطورس وزيراً، وهو باقٍ على نصرانيته.

وزارة رضوان بن ولخشي في خلافة الحافظ الذي أخرج المسيحيين من وظائفهم بسبب مسيحيتهم. وكان بن ولخشي سنياً متعصباً[1].

- حرية إقامة الشعائر والاحتفالات الدينية وبناء الكنائس. فقد وصف المقريزي وصفاً شيقاً احتفالات أعياد الأقباط، مثل عيد النيروز والميلاد والغطاس يشترك فيها النصارى والمسلمين ويتبادلون التحيات والأفراح والتسلية؛ وفي بعض الأحيان يتبادلون الهدايا، وتميّزت بحضور بعض رموز الخلافة. لقد كان الخلفاء الفاطميون يتغاضون عن التجاوزات التي كانت تحدث في هذه الاحتفالات إذا لم تتعد حداً معيناً[2].

- كان الخلفاء الفاطميون يتساهلون في تطبيق الشروط العمرية، كما أن الأقباط لم يلتزموا هم أيضاً بشروط هذا العهد الخاصة بالزي والركوب والمرور وبناء الكنائس وإقامة الشعائر والمجاهرة بها. فعلى أيام الخليفة المعزّ، بنى النصارى الأقباط العديد من الكنائس في القاهرة وفي الوجه البحري. وفي أيام العزيز بالله، بنى البطريرك زخارياس الكنيسة الكبيرة في بدمروا، والبطريرك خرستودليس بنى وكرس ستة كنائس في الإسكندرية[3].

أما في عهد الحاكم بأمر الله، فقد بغى الخليفة وتجبّر وظلم النصارى. فقد بلغت الأحداث في عصره حداً غير مسبوق عندما «ألزم النصارى بخروجهم كلهم من أرض مصر إلى بلاد الروم، فاجتمعوا بأسرهم تحت القصر في القاهرة، واستغاثوا ولاذوا بعفو أمير المؤمنين حتى أعفوا من النفي. ولعل هذا الحدث يعبّر عما يختزنه الأقباط من علاقة حميمة بالأرض التي ينتمون إليها.

(1) أيمن فؤاد سيد، م.س.، ص 200.

(2) المقريزي، الخطط، م.س.، ج1، ص 110 - 112 وج2، ص 389 - 394.

(3) المسيحية عبر تاريخها في المشرق، م.س.، ص 532.

53 - قوى الإنتاج في العصر الفاطمي ودور الأقباط النصارى

مما لا شك فيه، إن العديد من مؤرخي تلك الفترة، ينسبون ازدهار الخلافة الفاطمية. لذلك التقدم الملموس في القوى الإنتاجية الزراعية والصناعية، وما تبعه من نموّ في العلاقات النقدية والسلعية وانتعاش للتجارة الداخلية والخارجية. أي أن العامل الرئيسي في دفع عجلة التطور الفاطمي، كان مرجعه نشاط وجهد صغار المنتجين من المزارعين والصنّاع المصريين من مسلمين ونصارى.

لقد تمكّن المزارعون الأقباط في الصعيد وفي الريف المصري من المساهمة بقدر كبير في الإنتاج الزراعي، مردّ ذلك إلى انتشارهم الكثيف في الريف. فأثروا وتأثروا بالسياسة الزراعية لمصر في العصر الفاطمي[1] وكما قال المقريزي «كان فلاحاً قراراً» أي فلاح حتى «النخاع».

أما فيما يخص الصناعة، فقد استغل الفاطميون مهارة الأقباط في الإنتاجي الصناعي[2] على مختلف أشكاله وأساليبه مثل النسيج والسفن والأسلحة والسكر والزجاج والورق والمعادن وغيرها. كذلك تطور إنتاج زيت الزيتون والنبيذ. وقد تميز الأقباط بصناعة النسيج. وقد شيّد الخليفة الظاهر مصنعاً لنسج الحرير كان يضمّ ثلاثة آلاف صانع[3]. وانتشر صيت المنتوجات المصرية، ونسج الكتان في الإسكندرية ومدن الوجه البحري التي كان يقطنها عدد كبير من الأقباط، مثل دمياط وتانيس التي كانت تصنع «القصب والبولقمون» وهما من أفخر منسوجات تانيس. أما مدينة أسيوط في الصعيد، فقد اشتهرت بصناعة المنسوجات الصوفية كما اشتهرت أخميم بالمنسوجات الحريرية والصوفية. ويذكر أن عائلة قبطية تدعى أولاد قشلام ساعدت جوهر الصقلي في

(1) سلام شافعي محمود، م.س.، ص 104.

(2) أيمن فؤا سعيد، م.س.، ص 296.

(3) سلام شافعي محمود، م.س.، ص 118.

الاستيلاء على تانيس.

وقد نشط الأقباط في صناعة ورق البردي وتجليد الكتب بطريقة فاخرة كانت قبلة للأنظار. كما شاركوا في صناعة الزجاج والبلور والمعادن والخشب، وكانوا وسطاء بين المنتجين المحليين والتجار الأجانب.

54 - الفن والثقافة

إلى جانب كل هذه الأمور التي أبدع الأقباط في صناعتها، فقد لعبوا دوراً كبيراً في الفنون على مختلف أنواعها. وشهد العصر الفاطمي تأسيس مدرسة فنية وثقافية متميزة. وأهم ما تركته تلك المدرسة هو فنون الخشب الموجود في كافة الأبنية الدينيّة المسيحية والإسلامية، كذلك في القصور والمنازل، فقد كثر عدد النجارين والمصورين الأقباط في مصر.

كما تطورت الفنون الخزفية تطوراً ملموساً في العصر الفاطمي كنتيجة للازدهار الاقتصادي وظهور طبقة من الأثرياء القادمين على اقتناء منتجات الفنون الخزفية الغالية الثمن. لقد استخدم الفنان القبطي الألوان على الخزفيات، بشكل أكثر دقة ووضوحاً، وصوّر موضوعات أكثر تعقيداً، ويُعدّ الطبق الذي يصوّر إنزال المسيح عن الصليب، والمحفوظ في متحف الفن الإسلامي بالقاهرة، من أجمل الأعمال الخزفية الملونة.

واستمرّ الرسّام القبطي في إبداع رسم الجداريات القبطية المشهورة، مثل جداريات مذبح القديس يوحنا في كنيسة أبو سيفين، بمصر القديمة والجداريات الضخمة في الدير الأبيض والتي يمكن إرجاعها إلى فترة حكم بهرام الأرمني الذي عاش في الدير بعد تركه للوزارة في عهد الخليفة الحافظ، وقد أطلق على هذا الإنتاج الفني: فن القرون الوسطى العظيم[1].

في العصر الفاطمي لم يكن النصارى في بلاد الشام وفي مصر جماعة منغلقة على نفسها تنتظر ما

(1) Mahmoud zibawi, Easter Christian Churches, The liturgical press, college ville, Mimesota, 1995, p, 163 - 174.

تخبئه لها الأيام من مآسي وكرب، بل تفاعلوا مع الناس كل الناس، فانتشروا وتفاعلوا في السياق الاقتصادي والاجتماعي والثقافي في الديار التي كانوا يعيشون فيها وخاصة الشعب القبطي الأصيل في الديار المصرية. وقد ساهموا مساهمة فعالة في تطور الخلافة الفاطمية على كافة الصعد الاقتصادية منها والثقافية والاجتماعية. رغم بعض التميز في المعاملة الذي كان بعض الخلفاء يظهره للنصارى في الديار المصرية وفي بلاد الشام وخاصة الخليفة الحاكم بأمر الله، رغم نصرانية والدته وخاليه أسقفي الإسكندرية والقدس.

على كل حال استمرَّ النصارى وكنسيتهم كحقيقة مهمة في تاريخ مصر وبلاد الشام. وخلاصة القول إن هذه الأقلية القبطية في مصر ظلّت متمسكة بدينها المسيحي بشجاعة وأقامت كنائسها شبيهة بالحصون، وكانت تؤدي فرائضها الدينية، ولا تزال باقية في تلك البلاد إلى يومنا هذا. لكن كنائس الإسكندرية وقورنسية، وقرطاجة وأفريقيا، التي كانت تزدحم قبلاً بالمصلين أخذت تخلو منهم وتتداعى، وانمحت من الأذهان ذكريات آباء الكنيسة الكبار مثل اثناسيوس وسيريل Cyril وأوغسطينوس، وخبت نيران المنازعات بين الأريوسيين، والدونانتيين، واليعاقبة المسيحيين، وحلّ محلها نزاعات اخرى، إنما ليس ضمن الطائفة المسيحية. وأيّد الفاطميون سلطانهم، بجمع طائفة الإسماعيلية في جماعة كبرى ذات مراسم وطقوس ودرجات متفاوتة، واستخدموا أعضاءها في التجسس والدسائس السياسية، وانتقلت طقوس هذه الجماعة إلى القدس وأوروبا، وكان لها أكبر الأثر في أنظمة فرسان المعبد والجماعات المستنيرة (Illuminate) وغيرها من الجماعات السرية التي قامت في العالم الغربي، كما كان لها أكبر الأثر أيضاً في طقوسها وملابسها[1].

(1) قصة الحضارة، م.س.، ج 13 - 14، ص 275 - 276.

الفصل الثاني

دور المسيحيين في العهدين السلجوقي والزنكي الأيوبي

(1071 - 1250)

1 - توطئة

بعد وفاة الخليفة المأمون، السنة 833، أحسّ الخلفاء العباسيون «أن السلطة الزمنية بدأت تفلت من يدهم شيئاً فشيئاً. فراحوا يركّزون نفوذهم على السلطة الروحية، وأظهروا غيرة على الدين وبدأ التعصب ينتشر. فأجبر الخليفة المتوكل (847 - 861) غير المسلمين وخاصة النصارى، على ارتداء ثياب ذوات لون أصفر... وأمر بهدم الكنائس التي بنيت بعد الفتح العربي... كما سرّح الموظفين المسيحيين، وأمر بهدم قبور المسيحيين وتسويتها بالأرض، ومنع غير المسلمين من امتطاء دواب سوى الحمير والبغال»[1].

كانت نتيجة هذه الإجراءات

(1) لامنس، هنري، الأب، سوريا، ج1، ص 132 - 137.

التعسفية، التي كانت تتجدد في الأزمنة التالية، أن نقص تدريجياً عدد الرعايا المسيحيين، الذين راحوا بمعظمهم ينصرفون عن المسيحية، جماعة تلو جماعة.

فمنذ قيام دولة العباسيين في بغداد، وفي تعاقب الأجيال العديدة التي خلفتها، فإن مختلف الشعوب المتعرّبة في الشرق الإسلامي، كالمصريين والسوريين واللبنانيين والفلسطينيين والعراقيين وغيرهم، والخاضعة باستمرار لشعوب إسلامية غير عربية، فقدت إلى حد كبير روح الوحدة أو الرابطة اللغوية والثقافية العربية، التي ذابت في الوحدة أو الرابطة أو الأمة الإسلامية.

ومع مرور الزمن على هذه الحالة، أصبح الحكام المسلمون غير العرب، من أكراد وأتراك وإيرانيين وغيرهم، بنظر الشعوب العربية أو المتعرّبة المحكومة، أسياداً شرعيين وقوميين ووطنيين، لانتمائهم إلى الإسلام، باعتبار أن الإسلام يمثّل القومية والوطن. فالأمة والوطن والقوم، في بلدان الشرق، كانت ولا تزال، أموراً أساسها الدين.

2 - هبوط الدولة العباسية وتفككها

كانت سلطة الدولة العباسية متينة تفرض الطاعة حتى عهد هارون الرشيد (786 - 809)، إلا أنه، منذ هذا العهد، بدأت تظهر التناقضات في الدولة. وبعد وفاة هارون، ساهمت التحركات والثورات السياسية والدينية والاجتماعية في تفكيك الوحدة السياسية.

هذه النزاعات بين الفرس والعرب، في بغداد، في عهد الخليفة المأمون (813 - 833)، أجبرت هذا العاهل أن يقتني، لحراسته الشخصية، قوات «مرتزقة»، مأجورة، من المماليك (الأرقاء)، أغلبية عناصرها من الأتراك الآسيويين.

في عهد المعتصم (833 - 842)، بات زعماء الحرس التركي أسياداً في الدولة. وقد هجر الخليفة هذا عاصمته بغداد خشية القيام بثورة عليه، وانتقل

مع حرسه التركي إلى سامراء (سُرَّ من رأى)، على بعد حوالي مئة كليومتر عن بغداد شمالاً.

مع وفاة المعتصم السنة 842 وحتى عام 945، أي خلال قرن تقريباً، ظلت سلطة الخليفة في انحدار حتى تلاشت كلياً أمام سلطة رئيس الحرس التركي، الذي أصبح بالفعل رئيس الدولة. ففي عهد ابن المعتصم الخليفة الواثق، منح رئيس حرسه التركي لقب «سلطان». وعند وفاة الواثق، أعلن الحرس خليفة بعده جعفر المتوكل (847 - 861) الذي حاول أن يفرض إرادته على الحرس ويسيطر عليهم. وخلافاً لأسلافه المباشرين، سعى إلى الاتكال على التعصب الديني، كما ذكرنا.

رغم كل ما بذله المتوكل ليتحرر من سيطرة حراسه الأتراك، فإنه انتهى إلى القتل عن أيديهم، بإيعاز من ابنه وخلفه المستنصر (861)، أما هذا، الذي حاول أن يستقل قليلاً بالحكم، فقد قتله حراسة الأتراك، بعد خمسة أشهر (862) من اعتلائه العرش. ومن السنة 862 إلى سنة 870، حاول ثلاثة خلفاء أن يتحرروا من وصاية الحرس التركي، فكان نصيبهم القتل.

21 - التشريع ضد النصارى

«وطرأ في عهد المتوكل طارئ جديد، هو اشتداد نقمة النصارى، بسبب التدابير الصارمة التعسفية التي فُرضت عليهم.. ولقد كان هارون الرشيد، جد المتوكل، قد أعاد مفعول بعض الإجراءات سبق ووضعت تعسفاً في حق أهل الكتاب، من النصارى واليهود. على أن الكثير من هذه التدابير، لم يوضع موضع التنفيذ. ومن السنة 850 إلى السنة 854، أعاد المتوكل ثانية شرعة التمييز الديني، وأتبعها بتدابير جديدة، كانت أشد ما فرض بحق النصارى على الإطلاق... ثم أن القضاة المعاصرين عمدوا إلى اعتبار شهادة... النصراني على المسلم غير مقبولة... ولم يقع بعد ذلك اضطهاد خطير حتى زمن الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله (996 - 1021).

22 - تفكك الدولة العباسية

في عهد الخليفة الواثق وقبله، كانت بعض السلالات الإقليمية أو حكام المقاطعات تقتطع لنفسها مناطق نفوذ من ممتلكات الخلافة، في المناطق والأقاليم الغربية والشرقية. وجل هؤلاء الحكام الجدد كانوا من الأتراك والفرس.

منذ السنة 756، وفي الغرب، أفلتت إسبانيا من السيطرة العباسية. أما المغرب في السنة 788، وتونس في السنة 800، فقد حصلتا على استقلال فعلي. وفي السنة 822، استقلت خراسان، وحذت حذوها إيران الشرقية، السنة 870، وفي السنة 872، استقلت مصر على يد حاكمها أحمد بن طولون الذي سلخ بلاد الشام ما عدا العراق ومن بعده التركي محمد بن طغج الملقّب بالإخشيد. وفي السنة 969، حلّ محل الأتراك الإخشيديين، في مصر، الخلفاء الفاطميون وضموا إليهم بلاد الشام.

3 - السلاجقة الأتراك

يتحدّر السلاجقة من أسرة أمراء أتراك، من القبيلة التركية «أوغوز»، التي سيطرت على الشرق الإسلامي في القرنين الحادي عشر والثاني عشر. فهم أول قبائل تركية كبيرة أسست، في الشرق الأدنى، دولة كبيرة، جمعت إيران والعراق وسوريا وقسماً كبيراً من آسيا الصغرى (هضبة الأناضول)، في القرن الحادي عشر.

إن اسمهم مستمد من «سلجوق»، اسم زعيم هذه القبيلة التركية، الذي استقرّ مع قبيلته في منطقة فرغانه (أوزبكستان اليوم)، في القرن العاشر، وقد انتقلت ذريته إلى بلاد خرسان الإيرانية وتركستان، حيث اعتنقت الإسلام السني، في القرن العاشر.

كان محمد طغرل بك (1038 - 1063)، حفيد سلجوق زعيماً لإحدى القبائل «أوغوز» التركية. وهو أول عاهل سلجوقي كبير. فبعد أن هزم الزعيم الغزنوي التركي مسعود (1040)، في آسيا الوسطى، انتزع منه

خراسان، حيث اعترف به كرئيس للسلجوقيين. ثم وسّع سيطرته، على بلاد الفرس، فانتزع من البويهيين الإيرانيين مدينة أصفهان (1051).

في السنة 1054، نهب المجندون الأتراك، المرتزقة بغداد فاستنجد الخليفة العباسي «القائم بأمر الله» (1031 - 1075) بطغرل بك، الذي دخل بغداد (1055) وحرّر الخليفة من وصاية البويهيين الشيعة وذلك على مرات ثلاث: 1055 و1058 و1060. وتزوج طغرل بك بابنة الخليفة العباسي. وقد نال منه المقام الأول في الدولة، مع لقب سلطان وألقاب شرفية: «ملك الشرق والغرب» أي إيران والعراق و«ملك الفرس والعرب» (1060). وهو أول مسلم نقش على نقوده لقب «سلطان». ومنذ ذلك الوقت اقتسم الفاطميون والسلاجقة بلاد الشام، فاستولى السلاجقة على شمالي سوريا (حلب ومنقطتها) وسيطر الفاطميون على جنوبيها (دمشق وفلسطين) وتفوّق السنيّون على الشيعة. وكانت الأراضي في الدولة موزعة على الأمراء السلاجقة كإقطاعات، لا تنتقل بالوراثة[1].

وقد أصبح السلاجقة أبطال الإسلام في الشرق الأدنى وحلّوا محل الفرس والعرب المنهوكين وأعادوا الهللينية (الحضارة اليونانية) إلى مهدها، كما سنرى فيما بعد.

إنشاء دولة السلاجقة

أ - السلطان ألب أرسلان

في السنة 1070، أغار السلطان ألب أرسلان (1063 - 1073) ابن أخ طغرل بك وخلفه، بجيوشه على الدولة المرداسية، في شمالي سوريا، فاحتل حلب المدينة واستتبع حاكمها المرداسي. أما «فاتزيز» قائد جيوشه،

(1) بولس، جواد، التحولات الكبيرة في تاريخ الشرق الأدنى منذ الإسلام، دار عواد للطباعة والنشر، دون تاريخ، ص 227 - 228.

وهو تركماني من خوارزم، فقد اقتحم فلسطين، وانتزع من الفاطميين، رام الله والقدس وسواهما من المدن. وفي السنة 1071، أحرز ألب أرسلان انتصاراً حاسماً على البيزنطيين في مانزكرت (ملازجيرد)، شمالي بحيرة ڤان، حيث وقع الإمبراطور نفسه أسيراً في يده. وإذ ذاك غدت آسيا الصغرى برمّتها مكشوفة أمام الأتراك. وللمرة الأولى استطاعوا أن يحرزوا موطئ قدم في تلك الأصقاع، وما زال في يدهم حتى اليوم[1].

في العام 1072، توفي السلطان ألب أرسلان بطعنة خنجر من ثائر، فخلفه ابنه ملكشاه.

ب - الأمير تُتُش سيد دمشق

في السنة 1076، احتل اتزيز، القائد التركي، دمشق وانتهب أموال أهلها. وعندما اصطدم بالفاطميين، نَجَده السلطان ملكشاه بشقيقه الأمير تُتُش (1078 - 1095)، مؤسّس سلالة السلاجقة في سوريا، وقد عيّنه السلطان ملكشاه، حاكماً على دمشق. دخل تتش دمشق العام 1078، حيث قوّم الأوضاع ثم تخلص من اتزيز، بالقضاء عليه في السنة التالية.

ج - الأمراء الأتابكة

كان سلاطين السلاجقة يعهدون إلى أمراء مجربين لتدريب أولادهم القاصرين وتعليمهم، وعرف هؤلاء الأمراء باسم الأتابكة. وهي كلمة تركية مؤلفة من مقطعين: الأول «أتا» ومعناه الوالد والثاني «بك» ومعناه الأمير أي الوالد الأمير. وكان الأتابك وصياً أو مربياً أو مؤدباً لصغار أمراء السلاجقة. ثم تحولت كلمة أتابك إلى لقب شرف، له صفة الامتياز الوراثي ويمنح للقادة العسكريين والمقربين من السلاطين.

لم يتمكّن تُتُش من ضم حلب إلى حاكميته، التي كان أخوه ملك شاه،

---

(1) حتّي، فيليب، د.، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ج2، ص 205.

قد استولى عليها، السنة 1077، فعيّن عليها حاكماً أحد ضباطه الأتراك، القائد «أك سُنقُر»، والذي كان أتابكاً، واكسُنقر هذا هو والد عماد الدين زنكي، الذي قام فيما بعد بدور عسكري هام، في سوريا الشمالية والداخلية، ضد الصليبيين الفرنجة[1]، وأسس دولة الأتابكة الزنكيين في الموصل.

بعد وفاة ملكشاه، استولى تُتُش على مدينة حلب (1094). ولكنه قُتل في السنة التالية، في إحدى المعارك. فحكم مكانه ابنه رضوان في حلب (1095 - 1113)، وتولى الحكم في دمشق، ابنه الآخر، دقاق (1095 - 1104)، وكان صهر لتُتُش يتولى إقطاع القدس. في السنة 1098، أُجبر صهر تُتُش على التخلي عن إقطاع القدس للفاطميين. وفي السنة ذاتها، خرجت القدس من يد الفاطميين «لتقع في يد غرباء، لم يكونوا في الحسبان، هم الصليبيون»[2].

في مقابل المشرق البحري (فلسطين ولبنان وشاطئ الشمال السوري)، مركز مملكة الفرنج أو الصليبيين الأوروبيين المسيحيين وإماراتهم، كانت سوريا الداخلية أو الإسلامية (دمشق وحمص وحلب والموصل) التي لم يستطع الفرنج إخضاعها لسيطرتهم. فبقي على رأسها الأتراك السلجوقيون أو عمالهم الأتراك، الأتابكة.

د - الأتابك طغتكين، حاكم دمشق

كان طغتكين مولى لتُتُش مكلّفاً تأديب ابنه دقّاق. وقد جرى على سيرة غيره من الأوصياء، فعمد إلى اغتصاب السلطة. ثم أقرّت سلطته على دمشق بعيد وفاة سيده القاصر، وكان قد تزوج من أمه. وفي سنة 1116، عين

---

(1) المسيحية عبر تاريخها في المشرق، م.س.، ص 579.
بولس، م.س.، ص 235 - 236.

(2) بولس، م.س.، ص 237.

كبير سلاطين السلاجقة في بغداد طغتكين حاكماً على سوريا، وأولاه حق فرض الضرائب وتجنيد الرجال[1].

4 ـ الدولة الزنكية

في السنة 1123، أقطع السلطان السلجوقي محمود بن ملكشاه، التركي عماد الدين زنكي منطقة الموصل، ومنحه لقب أتابك. انصرف عماد الدين إلى تحسين أداة الحكم وتنظيم الجيش. وفي السنة 1128، زحف على مدينة حلب واستولى عليها وكذلك حمص وبعلبك ورأى أن إمارة الرها الفرنجية مغروزة كالإسفين الفاصل بين شمالي سوريا وشمالي العراق فانتزعها السنة 1144، وجعل المنطقة بكاملها موحّدة في قبضة يده، راسماً صورة جديدة للعلاقات مع الصليبيين. وفيما كان عماد الدين يحاصر قلعة جابر، هجم عليه بعض مماليكه، بتحريض من أعدائه، وفتكوا به[2]. وقد استأنف انتصارات عماد الدين على الصليبيين، بعد وفاته، ابنه نور الدين محمود زنكي، وبعد نور الدين، خلفه الناصر صلاح الدين الأيوبي.

واصل نور الدين الفتوحات إلى بانياس ودمشق وأصبحت الدولة الزنكية في زمنه تمتد من أعالي دجلة إلى منابع الأردن وعلى تماس مع الإمارات الصليبية ومهددة لها.

في العام 1169، أرسل نور الدين زنكي، بمهمة سياسية عسكرية إلى القاهرة الفاطمية لحمايتها من الصليبيين، أحد كبار الضباط الذين في خدمته، المدعو أسد الدين شيركوه، من أسرة كردية عريقة، واصطحب شيركوه هذا، في هذه الرحلة الرسمية، ابن شقيقه: الشاب صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب، وكان عمره حوالي 31 سنة.

على أثر نجاح شيركوه في مهمته

---

(1) حتّي، م.س.، ج2، ص 207 - 208.

(2) سيد أمير علي، مختصر تاريخ العرب، نقله إلى العربية عفيف البعلبكي، ص 294.

في القاهرة، بالنيابة عن سيده نور الدين، ولاه الخليفة الفاطمي الوزارة في مصر، وهي المركز الأول في الدولة، بعد الخلافة. وبعد شهرين من توليه الوزارة، توفي، فعيّن الخليفة الفاطمي، العاضد، ابن شقيقه صلاح الدين خلفاً له، ولقّبه «بالملك الناصر»(1).

في السنة 1171، أقدم صلاح الدين، بتشجيع من نور الدين زنكي، على خلع الخليفة العاضد وإلغاء الخلافة الفاطمية في مصر وراسل الدولة العباسية فأصدرت بغداد السنة 1174 براءة بتعيينه حاكماً على مصر وسوريا. ثم مدّ حكمه إلى القيروان والنوبة والحجاز، واعتبر مؤسس الدولة الأيوبية نسبة إلى والده ايوب بن شاذلي الذي كان في ذلك الوقت حاكماً من قبل نور الدين على بعلبك في لبنان.

أهداف الدولة الزنكية - الأيوبية

قبيل قيام الدولة الزنكية - الأيوبية، عاش قسم من المسيحيين الشرقيين ضمن الإمارات الصليبية، منهم من والى الصليبيين ومنهم من تحفّظ، ومنهم من عاش في الدولة العباسية خاضعاً لأحكام أهل الذّمة. أما القسم المتبقي فعاش في ظل الخلافة الفاطمية «فشهد أفخم مظاهر الترف كما عرف طعم البؤس والجوع، وأسعد بالتسامح الديني الشامل، كما كان فريسة الاضطهاد والاستبداد(2)».

لاحظ الأيوبيون أنه قد اجتمع عندهم «داءان: الكفر والبدعة(3)، وكلاهما شديد الروعة مديد اللوعة»(4) فحددوا لهم هدفين:

أ - محاربة الصليبيين بدون هوادة حتى إخراجهم من الشرق.

(1) بولس، م.س.، ص 269.

(2) المصري، إيزيس، قصة الكنيسة القبطية، طبعة الكرنك، مصر، ج3، ص 186.

(3) معارك العرب، ج17، العميد الركن أبو طلال الفغالي، دار نوبيليس 2007، ص 14.

(4) المرجع نفسه.

ب - قلب الخلافة الفاطمية في مصر واستبدالها بخلافة سنية.

ولذلك اعتبرت الدولة الزنكية - الأيوبية اخطر عهود الدولة الإسلامية، وكان على مسيحيّي الشرق مواجهة هذا الواقع المعقد، سلباً أو إيجاباً، حسب عهود السلاطين العظام في هذه الدولة.

5 - المسيحيون ودورهم في العهد الزنكي

51 - في عهد عماد الدين زنكي

كان عماد الدين زنكي كغيره من القادة المسلمين الأتراك، يحب الموت في سبيل مبادئه الدينية وقتاله الفرنجة والنصارى بشكل عام وسيبقى أميناً لها خلال 18 سنة حيث سيجوب سوريا والعراق وينام على الأعشاب اليابسة ليحمي نفسه من الأوحال. يقاتل الصليبيين والأمراء المسلمين على السواء لم يفكر أبداً بأن ينام، بسلام وراحة، في أحد قصوره ولو لليلة واحدة[1]. لا يوجد في بطانته مكان للممالقين والمداهنين. كان يجمع حوله مستشارين سياسيين يتمتعون بالخبرة الواسعة. إلى جانب تنظيمه لشبكة من المخبرين، يفيدونه عن كل شاردة وواردة عما يحصل في بغداد وأصفهان ودمشق وأنطاكية والقدس وحلب والموصل واللاذقية وغيرها. وكان جيشه يتمتع بانضباط دقيق وتدريب متواصل.

في العام 1135 دخل عماد الدين زنكي في عراك مع الصليبيين وألقى الحصار على أثارب الواقعة على بعد 30 كلم غربي حالب واستولى عليها وأصبح يسيطر على الطريق بين أنطاكية وحلب وقد قتل من الأهالي والفرنجة العدد الكبير. ثم استولى على تل القاضي ومعرة النعمان وكفرطاب وشيزر. ثم باغت أعمال اللاذقية ولم يتمكن السكان من أخذ الحيطة والحذر، فنهبت جيوشه «ما يزيد عن الوصف وقتلت وأسرت وفعلت في بلاد الفرنج ما لم يفعله غيرها، وكان

(1) المرجع السابق نفسه.

الأسرى سبعة آلاف بين رجل وامرأة وطفل، ومائة ألف من الدواب، ما بين جواد وبغل وحمار وبقر وغنم، وأخربت اللاذقية، وما جاورها ولم يسلم منها إلا القليل»[1].

في تموز 1137، زحف عماد الدين زنكي على حمص وحاصرها لمدة أسبوعين بعدها انتقل إلى قلعة بعرين الضخمة، الواقعة على المنحدرات الشرقية لجبال النصيرية، المنفذ المؤدي إلى البقيعة في لبنان. وهناك دارت معركة بين الفرنج والمسلمين انتهت بانتصار عماد الدين ولقي معظم الصليبيين حتفهم في ساحة الوغى، ووقع في الأسر أمير طرابلس نفسه.

وقبل أن يتقدم عماد الدين لاقتحام حصن بعرين، أنفذ الملك الصليبي طالباً النجدة من أمير الرها وأمير أنطاكية الإفرنجيين، لأن وقوع الملك بأيدي عماد الدين زنكي، إنما يعني زوال مملكة القدس الصليبية إلى الأبد.

أ - سقوط الرها بيد عماد الدين زنكي (1144):

شعر الفرنج في الشرق بارتياح، حين علموا بوفاة الإمبراطور البيزنطي يوحنا، غير أنهم، في سرورهم لم يلحظوا أن الأتابك عماد الدين زنكي، أكبر أعدائهم، كان أكثر سروراً وسعادة. إذ ظلّ زنكي سنتين، ابتداء من السنة 1141، شديد الاضطراب، لما أعرب عنه السلطان مسعود السلجوقي، من رغبة في إعادة فرض سيادته عليه. ولم يدرأ زنكي غزو جيش السلطان لإقليم الموصل، إلا بعد أن أظهر له في الوقت المناسب الخضوع والإذعان، وما صحب ذلك من دفع الأموال له، وإرسال ابنه رهينة لديه. فلو أن البيزنطيين غزوا الشام وقتذاك، لتمّ القضاء على مشروعات عماد الدين في الغرب. على أن هذه

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، م.س.، ج11، ط، صادر، ص 40.

الخطط تعرّضت أيضاً للخطر، بانعقاد تحالف بين ملك القدس الفرنجي وأتابك دمشق، فقد كانا يشعران بالخوف منه[1].

استعاد ريمون أمير أنطاكية الثقة في نفسه، منذ وفاة الإمبراطور البيزنطي، وارتداد زنكي عن دمشق، فأرسل على الفور إلى الإمبراطور البيزنطي الجديد، مانويل، يطلب منه إعادة كيليكية إلى إمارته، وعندما رفض طلبه، بادر ريمون بغزو هذه المنطقة، فأرسل الإمبراطور البيزنطي حملة برية وبحرية بقيادة برسق التركي المتنصّر وغيره من البيزنطيين أدت إلى طرد ريمون من كيليكية ومطاردة جنوده حتى أسوار أنطاكية[2].

وحدث قبل شهور مضت، أن أضاف ريمون إلى إمارته منطقة «البزاعة» من أعمال حلب، كما أن جوسلين، كونت الرها، زحف إلى الفرات ليلتقي به. وأثناء ذلك عقد جوسلين هدنة مع «سوار» والي حلب الأمر الذي دمّر مشروعات ريمون وأدى إلى ازدياد سوء العلاقات بين الاثنين وأضحى الشقاق الصريح بينهما وشيك الوقوع. فجوسلين لا يرضى أن يكون ريمون سيداً عليه إلا عنوة[3].

أخذ عماد الدين يراقب هذه المنازعات، بعد أن أراحته وفاة الإمبراطور البيزنطي الذي كان من أشد أعدائه قوة وبأساً، وقد تبيّن لزنكي، من الناحية المنطقية والواقعية، أنه من المرجّح ألا يقوم ملك القدس بمغامرات حربية وقتئذ ضده وكذلك

(1) ابن الأثير، ج9، ص 241 - 242.
- ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، بيروت 1908، ص 264.
- رنسيمان، ستيفن، تاريخ الحروب الصليبية، عربّه الباز العريني، بيروت، دار الثقافة، 1085، ج2، ص 261 - 262.

(2) رنسيمان، ج2، ص 278.

(3) رنسيمان، ج2، ص 278.

أتابك دمشق، فلا يمكنه القيام بعمل عدائي ضد زنكي إلا بمساعدة الفرنج. فينبغي ألا تفلت من عماد الدين هذه الفرصة[1].

ففي خريف 1144، هاجم زنكي قره أرسلان الأرتقي، أمير ديار بكر، الذي تحالف منذ زمن قريب مع أمير الرها جوسلين. ويقول الأسقف السوري أبو الفرج باسيل، وهو شاهد عيان، وقد شارك في هذه الحوادث، وخاصة بالدفاع عن الرها، وكان لديه عطف في قرارة نفسه، وميل نحو الجيش الإسلامي منه نحو الجيش الفرنجي. «لقد ترك جوسلين كونت الرها المدينة وذهب للسلب والنهب على ضفاف الفرات. علم زنكي بذلك، ففي 30 تشرين الثاني السنة 1144، كان مع جيشه تحت أسوار الرها. كان كعدد نجوم السماء. قد عسكروا في كل الأراضي التي تحيط بالمدينة. فقد نصبت الخيام في كل الأمكنة، ووضع الأتابك خيمة قيادته في شمال الرها، مواجهة لباب الساعات، على رابية تسيطر على كنيسة المبشّرين»[2]. لقد غادر جوسلين ولم يترك أية قوة عسكرية في المدينة للدفاع عنها. وكانت الرها تقع على مسافة مسيرة يوم واحد فيما وراء نهر الفرات. وكان سيدها جوسلين، قد تخلى عن منزله هناك، خلافاً لعادة أسلافه، وأقام مسكنه الدائم بالقرب من نهر الفرات عند قلعة تسمى باسم «تل باشر» وابتعد كثيراً في تل باشر عن الإزعاج الذي كان يسبّبه أعداؤه، وحصل على الفراغ للاستمتاع بالترف وبالمسرّات من كل نوع، ولم يشعر بأية مسؤولية نحو المدينة كما كان يتوجب عليه[3].

والواضح أن جوسلين خرج من

(1) رنسيمان، ج2، ص 379.

- وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، دار نوبيليس، بيروت، 1990، ج4، ص 737.

(2) Maalouf, Amine, les Croisades vus par les Arabes, Ed, J'ai lu, Paris, 1983, P. 159.

(3) وليم، ج 4، ص 737.

الرها بجيش كبير، قاصداً نهر الفرات. لأنه أراد بذلك قطع اسباب الاتصال بين زنكي وحلب. على أن عيون زنكي في «حران» أخطرته بحركات جوسلين، فبادر بإرسال كتيبة بقيادة «الياغيسياني» أمير حماه، لمباغتة الرها. غير أن الياغيسياني ضلّ الطريق في ليلة من شهر تشرين الثاني، حالكة الظلام، غزيرة المطر، فلم يبلغ الرها، إلا بعد أن وصل إليها عماد الدين زنكي بجيشه الكبير، في 28 من الشهر نفسه السنة 1844. على أن أهل المدينة كانوا قد أخذوا حذرهم، وجرى شحن الاستحكامات بالرجال[1].

يقول أبو الفرج باسيل: «لم يترك جوسلين أية قوة عسكرية في الرها. فلم يبقَ فيها سوى السكافين وصانعي الأقمشة وبائعي الأقمشة الحريرية، والخياطين والكهنة. وقد أمّن الدفاع عن المدينة، هيو الثاني رئيس أساقفة اللاتين، محاطاً بأحبار أرمن وبالأسقف أبو الفرج باسيل نفسه الذي كان من أنصار تسوية الأمور مع الأتابك زنكي»[2].

ظلّ الحصار مضروباً على الرها مدة أربعة أسابيع. وقد أخلص كل من يوحنا أسقف الأرمن، وباسيل أسقف اليعاقبة، في مساندة رئيس أساقفة اللاتين. وفشل كل أمل عند عماد الدين لإغراء المسيحيين الوطنيين للخروج على ولائهم للفرنج[3]. لقد كان سكان الرها من الكلدانيين والأرمن المسالمين. وكانوا يجهلون تماماً استخدام السلاح، فالتجارة رائدهم والصناعة ملجأهم، أما اللاتين فكانوا أقلية بين السكان وكان الدفاع عن المدينة بكليته بأيدي المرتزقة، الذين لم يقبضوا أجورهم منذ أكثر من سنة[4].

---

(1) رنسيمان، ج2، ص 379.

(2) Maalouf, op. cit. p. 159.

(3) رنسيمان، ج4، ص 737.

(4) وليم، ج 4، ص 737.

لقد سدّ زنكي بإحكام، كافة مداخل المدينة المحاصرة، ومنع الخروج والدخول، وأصيب الناس داخل الرها بالإحباط الشديد بسبب نقص الطعام والمؤن من كل نوع. وكانت الرها محاطة بسور كبير وبأبراج شامخة في الجزء العلوي وكان يوجد برج آخر في المنطقة السفلى يمكن اللجوء إليه من قبل السكان، في حال الاستيلاء على المدينة، وكان بإمكان كل هذه الدفاعات أن تكون فعّالة ضد الزنكيين وغيرهم إذا توفّر فيها مقاتلون لديهم الرغبة في القتال بشجاعة من أجل الحرية. ولهذا السبب ازداد زنكي أملاً بالاستيلاء على المدينة عندما وجدها بلا مدافعين عنها. فأحاطها إحاطة السوار بالمعصم وضربها بقذائف المنجنيق فسحقت الحجارة والقذائف الأسوار باستمرار، ولم تسمح رشقات السهام بأية راحة للمواطنين. لقد أصبح الانتقال داخل المدينة محفوفاً بالمخاطر خوفاً من الإصابات القاتلة في أكثر الأحيان[1]. ويخبّر الأسقف أبو الفرج باسيل أن زنكي كان يوجّه باستمرار، إلى المحاصرين، اقتراحات للسلام قائلاً لهم «أيها التعساء، البائسون، أنتم تعلمون أنه لا يوجد أمل لكم بالبقاء على قيد الحياة... فماذا تريدون وماذا تنتظرون؟ أشفقوا على نفوسكم، على أولادكم وعلى نسائكم ومنازلكم. اعملوا ما يلزم كي لا تقع مدينتكم فريسة للاجتياح البغيض، فيقضي على أهلها وسكانها». لكنه لم يكن في الرها أي مسؤول يفرض إرادته، لذلك كان الجواب بالادعاءات والشتائم[2].

لقد اقترح أبو الفرج باسيل طلب الهدنة، فأنكر ذلك الرأي العام. على أن عدد المدافعين عن الرها كان قليلاً، برغم استبسالهم في القتال. لقد انتقد المؤرخ وليم الصوري جوسلين ونعته بالكسل والجبن لأنه رفض التوجه لنجدة عاصمته. غير أن جيش جوسلين

(1) وليم، ج 4، ص 738.

(2) Maalouf, op. cit. P.160.

لم يكن من القوة بما يكفي لخوض معركة حاسمة مع جيش المسلمين بقيادة عماد الدين زنكي. لقد اعتقد جوسلين أن استحكامات الرها الضخمة سوف تقاوم فترة من الزمن، وفي وسعه، وهو في تل باشر، أن يقطع طريق الإمداد التي يطلبها زنكي من حلب. كما أنه ركن إلى ما سيبذله له جيرانه من الفرنجة من مساعدة إن كان من أنطاكية أو من مملكة القدس. وفعلاً لقد تقدم جيش صليبي من القدس باتجاه الرها، لكنه لم يصلها إلا بعد فوات الأوان، بينما ازداد عدد جيش المسلمين بمن انحاز إليه من الأكراد والتركمان القادمين من أعالي نهر دجلة. وتوافر عند زنكي عدد لا بأس به من أدوات الحصار الجيدة[1].

في هذه الأثناء واصل زنكي مهاجمة المدينة بدون انقطاع، وألحق بها أضراراً فادحة، ولم يدع وسيلة من الوسائل يمكنها أن تخدم في زيادة محن الأهالي وتساعده في الاستيلاء على المدينة، إلا واستعملها وأرسل عمال الحفر خلال ممرات سرية فحفروا الأنفاق تحت السور، ودعّموا هذه الأنفاق بعوارض خشبية ووضعوا فوقها النفط والشحم والكبريت كي يتم إشعالها بسهولة وبقوة فتقضي على السور وتحدث الثغرة المطلوبة. على حين أن التجار ورجال الدين الذين ألّفوا الجانب الأكبر من حامية المدينة، لم تكن لهم خبرة بأمور الحرب، ولذا لم تنجح ما قاموا به من هجمات مضادة، ومن محاولات لوقف أعمال النقابين[2].

اقترح أبو الفرج باسيل أن يرسل إلى زنكي كتاباً يعرض فيه هدنة قتال. وافق على ذلك الأسقف اللاتيني هيو. فكُتب الكتاب وتُلي على مسامع الشعب في المدينة، لكن رجلاً، تاجر

(1) رنسيمان، ج2، ص 379 - 380.
(2) رنسيمان، ج2، ص 380.
وليم، ج 4، ص 739.
Maalouf, op. cit P. 160.

حرير، انتزع الرسالة ومزّقها، وكان زنكي يردد باستمرار «إذا كنتم ترغبون بهدنة لعدد من الأيام... فسنمنحها لكم لنرى إذا كانت المساعدة ستأتيكم. وإذا لم تأت المساعدة فما لكم إلا الاستسلام لتعيشوا بسلام»(1).

لقد ظن الناس سوءاً، برئيس الأساقفة هيو الذي احتفظ بالمال الذي جمعه، على الرغم من شدة الحاجة إليه في الدفاع.

حرق زنكي العوارض الخشبية وشبّت النيران تحت الأسوار فانهار جزء كبير من السور وترك ثغرة أمّنت مدخلاً للمسلمين كان عرضه أكثر من مئة ذراع. وكان ذلك ليلة عيد الميلاد، 1144 قرب باب الساعات(2). من هذه الثغرة دخل المسلمون إلى المدينة، وفرّ السكان خائفين إلى القلعة، فألقوا أبوابها مقفلة دونهم، بأمر الأسقف هيو، الذي ظلّ خارج القلعة، يحاول عبثاً إعادة الأمن إلى نصابه. وقتل من الفوضى الناشبة ألوف الناس تحت الأقدام. وفي أثناء المطاردة العنيفة للفارين، أجهز جنود زنكي على ألوف آخرين من الناس ومنهم الأسقف هيو نفسه.

في نهاية الأمر دخل عماد الدين زنكي المدينة راكباً، في موكب، فأمر بالكف عن القتل، وأبقى على حياة المسيحيين الوطنيين وأمر «برد ما أخذوه من الرجال والنساء والأطفال إلى بيوتهم وإعادة ما غنموه من أثاثهم وأمتعتهم فردوا الجميع عن آخره»(3).

طوّق رجال زنكي كافة الفرنج ثم قتلوهم جميعاً وبيعت نسائهم رقيقاً، وبعد يومين، استسلم لزنكي القس اليعقوبي «برسوما» الذي كان يتولّى قيادة حامية القلعة. ويقال إن عدد

---

(1) Maalouf, op. cit P. 160.

(2) وليم، ج 4، ص 739.
- رنسيمان، ج2، ص 380 - 381.

(3) ابن الأثير، م.س.، ج11، ص 99.

القتلى في ذلك اليوم وصل إلى ستة آلاف، وخمسة آلاف في اليوم التالي في القلعة وحولها[1].

ما إن وصل خبر سقوط مدينة الرها، حتى عمّ الحماس والنشوة العالم العربي والإسلامي. وأطلقت الألقاب والصفات على عماد الدين زنكي، وتوقع المسلمون أن يكون الهدف الثاني اللاحق للأتابك هو القدس. ومن الألقاب التي منحت للأتابك كانت: المالك المنصور - زين الإسلام - نصير أمير المؤمنين - الكبير الوحيد - دعامة الدين - حجر زاوية الإسلام - حامي الخيلفة - عظيم الامة - شرف الملوك - سند السلاطين - المنتصر على الكفرة - قائد الجيوش الإسلامية - الملك الظاهر - ملك الأمراء - شمس الدولة - أمير العراقيين وسوريا - فاتح بلاد الفرس - طغرل بك أتابك أبو سعيد زنكي ابن اقسنقر - عضد أمير المؤمنين إلى آخره[2].

بعد القضاء على الفرنج، أظهر زنكي الرفق في معاملة أهل المدينة، فعيّن «علي كوجك»، صاحب أربيل، أميراً على الرها، وأعطى المسيحيين الوطنيين من الأرمن واليعاقبة، قدراً من الاستقلال الذاتي. لقد دمّر كنائس اللاتين أما كنائس الوطنين فلم يمسّها بسوء، لا بل جرى تشجيعهم أيضاً على دعوة إخوانهم في الدين إلى المجيء إلى المدينة والإقامة فيها[3].

توجّه عماد الدين من الرها إلى سروج، التي كانت تعتبر ثاني حصون الصليبيين الكبيرة الواقعة شرقي نهر الفرات، فاستولى عليه في شهر كانون الثاني السنة 1145 بعدما هربت منه

(1) رنسيمان، ج2، ص 381.

- Maalouf op. cit, P. 161.

- وليم، ج 4، ص 740.

(2) Maalouf, P. 162 (عن القلانسي).

(3) رنسيمان، ج2، ص 382.

حامية الفرنجة. ثم تقدم في آذار إلى «البيرة» المدينة التي تتحكم في أهم مخاضة في نهر الفرات، غير أنه لقي مقاومة كبيرة من الحامية الصليبية فيها. وفي هذه الأثناء بالضبط ترددت الشائعات عند زنكي، بما وقع من الاضطرابات في الموصل. فأمر برفع الحصار عن البيرة وأسرع بالمسير باتجاه الشرق. فهو لا يزال أتابك الموصل للأمير السلجوقي ألب أرسلان بن مسعود. وعند وصوله إلى الموصل، اكتشف أن ألب أرسلان كان قد قتل ناصر الدين جقر نائب الأتابك، محاولاً بذلك أن يوطّد سلطته. لقد أساء ألب أرسلان اختيار الفرصة، لأن عماد الدين بلغ وقتذاك ذروة مجده في العالم الإسلامي، بعد فتح الرها المسيحية. فتقرر عزل ألب أرسلان عن الإمارة، وإعدام مستشاريه.

أما الخليفة فأرسل إلى زنكي سفارة تحمل الهدايا النفيسة، وتمنحه لقب الملك الغازي[1] وغيره من الألقاب بما يعادل فعلياً نفس درجة ابن السلطان ويعطيه استقلالية في السلطة[2].

كان لسقوط الرها الصدى الكبير في جميع أنحاء العالم آنذاك. فقد تجدد الأمل عند المسلمين، بعد أن تحطمت إمارة مسيحية صليبية قامت دخيلة في عقر دارهم، واقتصر حكم الفرنج على البلاد التي تقع على ساحل البحر المتوسط[3]. لقد استطاعت الرها، وخلال نصف قرن، أن تقطع طرق المواصلات بين حلب والموصل وبالانتصار عليها، جرى تطهير هذه الطرق من الفرنجة، وتم انتزاع الإسفين الذي غرسه الصليبيون بين السلجوقيين في إيران وإخوانهم في الأناضول. إن سقوط الرها زاد في إضعاف الروح

---

(1) رنسيمان، ج2، ص 383.
- نيكيتا، ج2، ص 380.

(2) نيكيتا، مماثل، ص 381.

(3) رنسيمان، ج2، ص 383.
- نيكيتا، ج2، ص 381.

المعنوية عند الصليبيين وأثار خوفهم وقلقهم[1] كما أنه كان صدمة كبيرة للمسيحيين في غرب أوروبا، إذ أدركوا ولأول مرة، أن الأمور أصبحت سيئة في الشرق، فنهضت حركة تدعو إلى حملة صليبية جديدة[2]. إلى جانب ذلك، سوف تتلقى أنطاكية، من الآن وصاعداً، لوحدها من الشمال، ضغط القوات الإسلامية، ولأجل ذلك سوف تطلب حماية البيزنطيين[3].

قرر جوسلين أن يعيد بناء إمارته في البلاد التي بحوزته، في غربي نهر الفرات، وأن يتخذ من «تل باشر» عاصمة له وكانت لاتزال بحوزته البلاد الممتدة من سميساط والتي تجتاز مرعش، إلى ما يقع في الجنوب من المدن: البيرة - عينتاب - راوندان - وتل باشر[4]. ومع أنه كان واضحاً أن زنكي سوف يبادر إلى قتاله. غير أن عماد الدين قرر أن يؤجّل القيام بهجوم آخر على الفرنجة بالشمال، وأن يوجّه اهتمامه من جديد إلى دمشق.

ب - مصرع عماد الدين زنكي (1146)

ابتداءً من 20 تشرين الثاني 1145، وخلال ثلاثة أشهر، كان الأتابك عماد الدين، مشغولاً بالاستعدادات العسكرية وتجميع قواته. كان السبب الرسمي لهذا التجميع هو «حرب الجهاد ضد الكفّار»، إنما بدأت الشائعات تجوب المنطقة بأن عماد الدين قرر مهاجمة إقليم دمشق.

في بداية 1146، تحرك عماد الدين إلى حلب، وفي أثناء اجتيازه الرها، علم أن الأرمن يحاولون التخلص من حكمه، وإعادة الأمير الفرنجي جوسلين وأتباعه إلى المدينة. على أن الأمير علي كوجك أحبط المحاولة في يسر وسهولة. فأمر الأتابك

(1) رنسيمان، ج2، ص 383.
(2) نيكيتا، ج2، ص 381.
(3) رنسيمان، ج2، ص 384.
(4) رنسيمان، ج2، م.س.، ص 384.

بقتل مدبّري المؤامرة وإحراق جثتهم. ونشر رمادها في الهواء، وبإبعاد قسم من الأرمن وباحلال 300 أسرة يهودية مكانهم، وكان معروفاً أن اليهود يساندون المسلمين على الفرنجة[1]. وكي يسيطر على المدينة، راح عماد الدين يتبع سياسة «فرّق تسد»، مستفيداً من الخلافات العقائدية بين المسيحيين. فساند أصحاب عقيدة الطبيعة الواحدة (المونوفيزيين) ضد اللاتين والأرمن[2].

وأمام قلعة جبر المحاصرة، في ليل 14/15 أيلول عام 1146، حدث أن تشاجر عماد الدين زنكي المخمور مع خادم له اسمه «يارانكاص» ينتمي أصلاً إلى الفرنجة، بعد أن فاجأه وهو يشرب الخمرة من كأسه. وإذ غضب يارانكاص لتأنيب عماد الدين له، فانتظره حتى نام، فاقترب من سريره وطعنه بخنجره عدة طعنات في صدره أدت إلى وفاته. لم يتدخل حرس الأتابك لإلقاء القبض على الجاني الذي هرب إلى داخل القلعة. ومن أعالي أسوار المدينة، أعلن جنود القلعة أمام قوات الموصل مصرع عماد الدين زنكي الذي توفي عن عمر لم يتجاوز الستين عاماً[3].

52 - في عهد نور الدين زنكي

تلقّى جميع أعداء عماد الدين زنكي، من فرنجة ونصارى وطنيين ومسلمين بالغبطة، نبأ اغتياله المفاجئ، إذ كانوا يأملون في أن يعقب عادة وفاة الأمراء المسملين، منازعات سرّية، سوف تؤدي إلى تمزق إمارته أو مملكته. يقول ابن الأثير: «إن جثمان عماد الدين دفن في الضفة اليمنى للفرات، في صفّين، حيث الكثير من مرافقي النبي محمد لاقوا حتفهم وهم يجاهدون أثناء المعركة بين علي بن

(1) رنسيمان، ج2، م.س، ص 385.

- Nikita, Elisséeff, Nur Ad Din, Damas, syrie, 3 volumes, 1967, T.2, P382.

(2) Nikita, T.2, op. cit., p 385.

أبي طالب ومعاوية»[1].

خلف عماد الدين زنكي ولداه: سيف الدين غازي، أكبر أبنائه سناً، الذي هرع فوراً إلى الموصل وبرفقته الوزير جمال الدين الأصفهاني، حيث تولّى الحكم فيها، بينما أخذ ابنه الثاني، نور الدين محمود، خاتم الملك من يد والده، وتوجّه إلى حلب حيث نادى به سلطاناً، أسد الدين شيركوه الكردي[2]، شقيق نجم الدين أيوب الذي أنقذ حياة عماد الدين، بعد أن تعرض للهزيمة عام 1132، على يد الخليفة العباسي.

كان نور الدين آنذاك في التاسعة والعشرين من عمره.

أ - نور الدين يقمع ثورة الرها ويسترد المدينة 1146

ما أن أُعلن عن وفاة عماد الدين زنكي، حتى راح الأمير جوسلين يستعد لإعادة استرداد مدينة الرها عاصمة إمارته. فقد أعد خطة لإعادة احتلالها، فاتصل عملاؤه بالأرمن في داخل المدينة، وظفروا بتأييد اليعاقبة من السكان. وفي الوقت المحدد، بعث الأهالي سراً رسولاً إلى جوسلين يخبرونه بأن الظروف أصبحت مؤاتية للقيام بالثورة على الحكم الزنكي، وأن المقاتلين السلجوقيين الموجودين في القلعة لحراستها كانوا قلة، وأن مدينتهم قد تم التخلي عنها إلى السكان بشكل عملي. وتوسلوا إلى جوسلين بجدية أن يجمع قوات عسكرية ويسرع إلى المدينة التي سيسلمها الاهالي له حالاً دونما مخاطر أو عراقيل، لأن السكان، وأغلبيتهم من الأرمن هم قادرون وبسرعة على إخضاع القلعة[3].

وخلال تشرين الثاني 1146، بعد شهر من وفاة عماد الدين، خرج

(1) Nikita, T.2, op. cit., p 385.

- رنسيمان، ج2، م.س.، ص 386.

(2) وليم الصوري، م.س.، ج4، ص 742.

(3) Nikita, T.2, op. cit., p 385.

جوسلين على رأس جيش قليل العدد من الخيالة والمشاة، وانحاز إليه بودوان أمير مرعش وكيسوم، ثم عبر بسرعة فائقة نهر الفرات كما هو متفق عليه، عند البيرة (بيرجاك) ووصل في ليل 27 تحت أسوار المدينة. وفي صباح اليوم التالي فتح الأهالي أبواب المدينة ودخل جوسلين إليها دون صعوبة وسيطر على المدينة دون القلعة المزوّدة بالمؤن والأسلحة بشكل جيد للغاية، كما أن قوات جوسلين كانت تفتقر إلى عناد الحصار والمنجنيقات والمعدات التي تساعد على بناء مثل هذه الآلة الحربية[1]. فظل في المدينة لا يدري ماذا يفعل.

أرسل مسلمو القلعة رسلاً، يطلبون النجدة من صاحب الموصل ومن نور الدين زنكي في حلب الذي كان جيشه وقتئذ يتصّدى لقتال أمير أنطاكية. غير أن نور الدين، وبناء لنصيحة شيركوه، ترك حلب على رأس جيش كبير، انضمّت إليه وحدات من الخيالة التركمان التابعة للأمير ياروك (Yaruk) وبحوزتهم معدات الحصار[2].

تقدم جيش نور الدين بخطوات سريعة، فوصل إلى منبج، فنهر الفرات حيث قطعه عند تل الأحمر وظهر فجأة أمام أسوار الرها بعد ستة أيام من دخول جوسلين إليها، ونشر فيالقه في دائرة حولها وبدأ عمليات الحصار، فوقع الفرنجة والأهالي بين قوات نور الدين في الخارج وحامية القلعة في الداخل وراح هؤلاء، وبصورة مستمرة، يخرجون من القلعة ويهاجمون السكان في الشوارع دون أن يفرّقوا بين الأرمن الموالين والأرمن الثائرين والفرنجة «فقتل الصالح مع الطالح». ظهرت المجاعة وطال أمد الحصار.

---

(1) وليم الصوري، م.س.، ج4، ص 753.

- Nikita, op. cit., p 397.

(2) Nikita, op. cit., P 397.

أما جوسلين وحفنة من رجاله، فقد التجأوا إلى وأحد من حصون المدينة الخمسة عشر ويدعى «برج المياه» لقربه من نبع «الكالليروهه»، حيث يعيش فيه منذ قرون بعيدة سمك الشبوط المقدس[1].

أدرك جوسلين أن النجاة غير متوفرة إلا بالجلاء المباشر عن المدينة[2]، لتخليصها من المجازر والمذابح. واستطاع أثناء الليل أن يتسلل إلى خارج الرها مع رجاله وبأعداد كبيرة من المسيحيين الوطنيين (أرمن ويعاقبة)، بعدما أشعل النيران في منازل المدينة السفلى. وفاجأ الجيش الإسلامي سيل الهاربين الفارين، فتمكن الخيالة الفرنج، مستفيدين من الليل البهيم والفوضى، من عبور خطوط القوات الزنكية. في هذه الأثناء فتح الزنكيون الموجودين في القلعة مداخل المدينة فدخلها عدد كبير من العسكر الإسلامي. فشدد هؤلاء الخناق على السكان من الوراء وأجبروهم على الإسراع في الرحيل. أما عسكر نور الدين الموجود في الخارج، فقد بدأوا يدخلون من الأبواب نفسها بعدما استولوا عليها. وهكذا قتل حشد كبير من كافة الصفوف والمراتب في ذلك الموقع عندما حاول طرف الخروج إبعاد الطرف الآخر الذي يشق طريقه إلى الداخل ونشب في هذا المكان الضيق، قتال عنيف كان خطيراً في عواقبه على الجانبين. ومع هذا قد تمكّن الأهالي من شق طريقهم إلى الخارج[3] وانتشروا في السهل المجاور. والمنظر المخيف الذي يرثى له، كان تكدس الأهالي في المدخل الضيق وبينهم حشد من الرجال المسنين والمرضى والنساء الضعيفات والأطفال وحتى

(1) رنسيمان، ج2، م.س.، ص 387.

(2) المرجع نفسه.

- Nikita, op. cit., T.2, p 398.

(3) وليم الصوري، م.س.، ج4، ص 755.

الرضّع منهم، فهلك عدد كبير تحت حوافر الخيل أو سُحق حتى الموت من جراء الحشد المتدافع، وسقط آخرون كثر بسيوف السلاجقة، ونجا القليل منهم بسبب قوتهم.

نظّم نور الدين حملة المطاردة. واستشهد الأمير بودوان أمير مرعش، كما استشهد العديد من الرجال البارزين الفرنجة. وانسحب جوسلين صاحب سميساط بعدما أصيب بجرح في رقبته، فلحق به باسيل أسقف اليعاقبة كما وقع يوحنا أسقف الأرمن أسيراً فحملوه مع بقية الأسرى إلى حلب. ولم يبق على قيد الحياة، إلا من وقع في السبي من النساء والأطفال. وتقرر إخراج كل سكان الرها المسيحيين وإبعادهم إلى المنفى. وأصبحت الرها خاوية موحشة[1]. وابتدأت مدينة حرّان على نهر البليخ، مدينة مسلمة منذ الفتح العربي، تأخذ على الحدود بين منطقة حلب والجزيرة، مكان مدينة الرها المدمرة[2].

بعد استيلائه على الرها، اعتبر المسلمون، نور الدين زنكي، قائداً أعلى للجهاد. وحاول كل فريق أخذ مواقع جديدة، فاستولى الفرنج على عسقلان عام 1155 واستعرضوا «كل من كان بها من مملوك وجارية من النصارى، فمن أراد المقام تركوه ومن أراد العودة إلى وطنه أخذوه قهراً، شاء صاحبه أم أبى»[3]. بينما توجه نور الدين إلى دمشق وسيطر عليها وحفظ لنفسه مكاناً مرموقاً في بلاد الشام ثم توجه إلى حصن المنيطرة في لبنان.

ب - الاستيلاء على حصن المنيطرة (1166)[4] في لبنان.

---

(1) وليم الصوري، مماثل، ص 756.
- رنسيمان، ج2، ص 288.

(2) Nikita, Op. cit., T.2, P398.

(3) ابن الأثير، الكامل، م.س.، ج11، ص 197.

(4) المرجع السابق نفسه، ص 322.

في السنة 1166، ومستفيداً من أسر ريمون الثالث أمير طرابلس، وقسم كبير من فرسانه، هاجم نور الدين المنيطرة في شمال لبنان، وهو واحد من المواقع الحصينة في الإمارة ومركز استراتيجي مهم، يسيطر على الجسر الطبيعي بمواجهة بلدة أفقا في نهر إبراهيم والطريق المؤدية من جونيه في كسروان إلى بعلبك في البقاع. بعدما جمع قواته، توجه نور الدين بسرعة عبر البقاع، فوصل فجأة أمام الحصن وحاصره. وكانت الحامية تعتقد أنها في مأمن، لذلك لم تأخذ أية حيطة أو حذر لمثل هذا الحصار. دخل نور الدين الحصن وقتل جميع أفراد حاميته واستولى على غنائم كبيرة بداخله وفي القرى المجاورة بعدما هرب الأهالي إلى الوديان المجاورة أو البعيدة تاركين قراهم ومنازلهم للنيران التي أوقدها عسكر نور الدين، «إنهم أعداء ويجب ابداتهم لتعاملهم مع عدو الإسلام الفرنجة..».

وهكذا أمّن نور الدين مواصلاته باحتلال الجناحين الحصينين: المنيطرة في الشمال اللبناني وقلعة شقيف تايرون في الجنوب منه، فانكشفت أمامه الطريق إلى منطقة التنوخيين الذين كانوا يسيطرون على قلب جبل لبنان (منطقة الغرب). وبعد هدوء قصير عاد نور الدين وأرسل في منتصف عام 1167، قواته بقيادة أسد الدين شيركوه إلى مصر. فكان بذلك بمثابة التدخل العسكري الثاني في هذه الديار.

ج - الاستيلاء على عرقة وصافيتا والعُريمة (1166)

في منتصف عام 1166، جمع نور الدين قواته، ووافاه أخوه قطب الدين من الموصل وغيره من الأمراء، وتم اجتماع القوات في منطقة حمص. بعدها زحف الجيش وعلى رأسه نور الدين فدخل بلاد الفرنج - إمارة طرابلس، فاجتازوا حصن الأكراد «فأغاروا ونهبوا وقصدوا عرقة في لبنان، فنازلوها وحاصروها وحاصروا حلبا في عكار وأخذوها وخرّبوها...» وسارت قوات نور الدين في تلك الإمارة يميناً ويساراً، تغير وتخرّب

البلاد [1]، ثم فتحت حصني العريمة وصافيتا، ثم عاد الجميع إلى حمص وبعدها بشهر تقريباً زحفوا باتجاه جنوب لبنان - بانياس وقصدوا حصن هونين واستولوا عليه وقتلوا من كان فيه ومن بجواره من الأهالي وهدموه.

د - نور الدين يتحالف مع الأرمن لاستعمالهم ضد النصارى

تنبّه نور الدين إلى أهمية التحالف مع الأرمن وتسوية الخلافات معهم، لما لهؤلاء من تأثير في ميزان القوى سياسياً وعسكرياً، كون الأرمن كانوا أخصاماً للروم ويسكنون المناطق التي يحلم نور الدين أن ينفذ منها إلى الديار البيزنطية المعادية. لذلك استخدم «مليح بن ليون الأرمني» واقطعه إقطاعاً سنياً وكان ملازماً لخدمة نور الدين وشاهداً لحروبه مع الصليبيين ومباشراً لها». ولما عاتبه بعض أمراء المسلمين في استخدام هذا النصراني وإعطائه الإقطاع من بلاد الإسلام قال: «أستعين به على قتال أهل ملّته وأريح طائفة من عسكري بإزائه لتمنعه من الغارة على البلاد المجاورة» [2].

6 - المسيحيون في العهد الأيوبي

61 ـ وصول صلاح الدين إلى الوزارة في مصر (1169) ثم إنشاء دولته الأيوبية

في العام 1166، حصل أسد الدين شيركوه، على الموافقة من سيده نور الدين بالتوجه مرة أخرى لغزو مصر والقضاء على الخلافة الفاطمية. وفي حزيران 1167، خرج شيركوه من دمشق على رأس قواته باتجاه الديار المصرية. وقد صحبه في هذه الحملة ابن شقيقه أيوب، صلاح الدين. وبين 1167 و 1169 وقعت عدة معارك دموية بين شيركوه وأعدائه الفرنجة والوزير الفاطمي شاور المغتصب المتعامل مع الصليبيين ضد الخليفة الفاطمي. ولما

---

(1) المصدر نفسه، ص 327.

(2) ابن الأثير، الكامل، م.س.، ج11، ص 387.

ثبت شيركوه قدميه في مصر وظنّ أنه لم يبق له منازع، وافاه أجله «حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة»(1). توفي شيركوه في 23 آذار 1169، نتيجة إفراطه في المآكل. وبناء على إرادته القطعيّة دُفنت جثته في القاهرة، ثم نُقلت فيما بعد إلى مادين(2).

عندما توفي شيركوه، وكان قد عيّنه الخليفة الفاطمي وزيراً له، كثر طلاب الوزارة بين الأمراء الذين أرسلهم نور الدين مع الحملة إلى مصر، منهم عين الدولة الياروقي وقطب الدين ينال وسيف الدين المشطوب الهكاري، وشهاب الدين محمد الحارمي، خال صلاح الدين وغيرهم(3).

ثلاثة أيام بعد وفاة شيركوه، في 26 آذار 1169، استدعى الخليفة الفاطمي العاضد، صلاح الدين الأيوبي، الذي كان قد رشّحه لمنصب الوزارة كل من: بهاء الدين قراقوش الأسدي، الأمير الوفي لشيركوه، والفقيه المشترع عيسى الهكاري. هذان الرجلان هما اللذين أوصيا الخليفة بتعيين صلاح الدين، على كرسي الوزارة(4).

لم يكن صلاح الدين في حين قلّد الوزارة أربى على الثانية والعشرين من عمره. وكان الأصغر سناً بين الأمراء والأقل خبرة وأنصاراً ومحازبين. وكان الأمر الذي أصدره العاضد في 23 آذار 1169، قد جاء فيه:

«هذا عهد أمير المؤمنين إليك، وحجّة عند الله لديك، فاوفِ بعهدك وخذ كتاب أمير المؤمنين بيديك».

ثم قلّده أمام جميع الموظفين في قصر الخلافة، رداء الشرف والعمامة ومنحه اللقب التالي: «الملك الناصر

---

(1) رنسيمان، م.س.، ص 619.
- سورة الأنعام: 44.
(2) رنسيمان، م.س.، ص 618.
(3) Nikita, T.2, op. cit., p 385.
(4) المرجع السابق نفسه.

أبو المظفر صلاح الدين والدنيا يوسف بن أيوب» وسلّمه براءة التولية المحررة من قبل القاضي الفاضل[1]. إنما بالنتيجة فهو نائب نور الدين زنكي لدى الخلافة الفاطمية وهو القائد العام لجيشه وقد منحه لقب أمير «الإسفهلاز»[2]. لقد أصبح صلاح الدين قائداً للجيوش الزنكية في مصر ووزيراً للخليفة الفاطمي الشيعي ونائباً لنور الدين السني. وبفضل دهائه أمر بأن يتم الدعاء للخليفية ولنور الدين في خطبة الجمعة.

عاش صلاح الدين في مصر مطمئناً لكنه كان خائفاً من نور الدين ومن وشايات الأعداء ضده. فقرر أن يقاوم نور الدين عسكرياً في حال فكر في أن يعزله من النيابة في مصر. واستناداً لهذه الفكرة، راح يعمل على كسب محبة المصريين وعلى إقامة دولة جديدة هناك على أنقاض الخلافة الفاطمية بحيث تمتد حتى سوريا وفسلطين والعراق.

في العام 1174، قرر نور الدين زنكي إعداد حملة عسكرية على مصر ضد صلاح الدين لكنه توفي في 15 أيار من السنة نفسها بالذبحة الصدرية. ودفن في قلعة دمشق ومنها نقلت رفاته إلى المدرسة التي أنشأها في المدينة عند سوق الخواصين[3].

جمع الشجاعة والخشوع لربه
ما أحسن المحراب في المحراب[4]

62 - المسيحيون في عهد صلاح الدين

بعد وفاة نور الدين، حاول صلاح الدين توحيد بلاد الشام ومصر، فبدأ

(1) المرجع السابق نفسه، ص 639.
- ابن الأثير، ج15، ص 18.

(2) رنسيمان، م.س.، ص 643.
- Nikita, Op. cit.,, p 663.

(3) المرجع نفسه.

(4) ابن الأثير، م.س.ن ص 59.

يستولي على المواقع الداخلية ويتحرش بالإمارات الصليبية الساحلية، فيما كان السكان الأصليون يتحملون وزر الحرب. ففي عام 1184، سار إلى نابلس «وأحرقها ونهب ما بتلك النواحي وقتل وأسر وسبى وأكثر، ثم اتجه إلى جنين فنهبها وخرّبها وعاد إلى دمشق ونهب ما على طريقه وخرّبه»[1].

تجددت الحرب بعد ثلاث سنوات وعاد المسلمون من طبرية «وقد نهبوا ما جاورها من البلاد وغنموا وسبوا»[2]. «وانتصر المسملون في حطين فتضعضع الكفار»[3]. وشعر اليعاقبة بصدى المعارك وتذمّر بطريركهم من الحال التي وصلوا إليه فقال: «إن الكلمات تعجز عن وصف ما يحدث وليس هناك ما يعزي اليعاقبة إلا الله»[4]. ولم يقدم الفرنجة أية مساعدة لليعاقبة لأن مشاعرهم في ذلك الوقت كانت مزيجاً من الشك في مساعدة الصليبيين لهم والتعرض للاضطهاد من قِبَل المسلمين أثناء الفتوحات[5].

جاء صلاح الدين بقواته إلى يافا «فحاصرها وملكها عنوة ونهبها وأسر الرجال وسبى الحريم وجرى على أهلها ما لم يجرِ على أحد من تلك البلاد»[6]. ويقول ابن الأثير عن مأساة يافا: «كان عندي جارية من أهلها وأنا بحلب ومعها طفل صغير عمره سنة فسقط من يدها فانسلخ وجهه فبكت عليه كثيراً فسكّنتها وأعلمتها أنه ليس بولدها ما يوجب البكاء فقالت: ما له أبكي إنما أبكي ما جرى علينا. كان لي ستة أخوة هلكوا جميعاً وزوج وأختان

(1) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، طبعة دار المعرفة، بيروت، ج3، ص 68.
(2) ابن الأثير، م.س.، ص 530.
(3) ابن الأثير، م.س.، ص 535.
(4) E. Zaccour and H. Hazard, History of the crusades, V.5, p. 82.
(5) المرجع نفسه.
(6) ابن الأثير، م.س.، ص 530.

لا أعلم ما كان منهم»[1].

كانت هذه الفتوحات وما رافقها من الخراب والدمار مقدمة لفتح القدس. ففي الجانب المسيحي كثرت شكوك الفرنج بالنصارى المحليين واتهموهم بالتآمر وتسليم القدس لصلاح الدين. وقد أرخت هذه الشكوك بظلالها على علاقة النصارى بعضهم البعض.

يجمع المؤرخون العرب والغربيون أن القدس فُتحت صلحاً، وشروط صلاح الدين كانت «بوسع كل فرنجي أن يفتدي نفسه، على أساس 10 دنانير للرجل و 5 دنانير للمرأة، ودينار واحد للطفل». وقد غادر الفرنج المدينة وكانوا قد باعوا «ما لا يمكنهم حمله من أمتعتهم وذخائرهم وأموالهم بأرخص الأثمان فاشتراها التجار من أهل العسكر والنصارى من أهل القدس الذين ليسوا من الفرنج. أما المسيحيون المشرقيون، الأرثوذكس واليعاقبة، فقد ظلوا مقيمين في القدس والتزموا بدفع الجزية فضلاً عن الفدية المقررة لكل واحد منهم. وقد أعفى صلاح الدين الفقراء منهم من هذه الواجبات. وابتاع أثرياؤهم قدراً كبيراً من الأملاك التي أضحت خالية بعد رحيل الفرنجة، واشترى ما تبقى منها، المسلمون واليهود الذين أعادهم صلاح الدين من دمشق إلى القدس. ثم تلقى السلطان سفارة من القسطنطينية لتهنئته ولتطلب منه ضرورة إعادة الأماكن المقدسة المسيحية إلى الكنيسة الأرثوذكسية، واستجاب صلاح الدين لهذا الطلب. والواقع أن كنيسة القيامة، لم تغلق أبوابها إلا ثلاثة أيام فقط، ثم تقرر السماح للحجاج الفرنج بدخولها مقابل رسم محدد يؤدونه[2].

وهكذا ثبّت الأرمن في مركزهم في كاتدرائية مار يعقوب وجعلهم يحتفظون بممتلكاتهم في بيت لحم لأن العلاقات الأرمنية الأيوبية، كانت جيدة

(1) المرجع السابق، ص 541.

(2) رنسيمان، م.س.، ص 756.

كما كان قد رسمها نور الدين عام 1172.

وراعى صلاح الدين الأقباط والأحباش وثبتهم في أماكنهم، لأن الأقباط كانوا من رعاياه والأحباش من جيرانه ومنح الأقباط دير السلطان وردّ لهم كل الأماكن التي استولى عليها الفرنجة[1]. «وكان في القدس بعض نساء ملوك الروم ممن ترهبن وأقمن في المدينة ومعهن حشد من العبيد والجواري وخلق كثير ولهنّ من الأموال والجواهر النفيسة شيء عظيم، فطلبن الأمان لأنفسهن ومن معهن فأمنهن»[2].

لقد أبقى صلاح الدين كنيسة القبر المقدس وسائر الكنائس على حالها ولم يدكّها أو يخرّبها، كما أشار عليه بعض المسلمين كي يمنع النصارى من الحج إلى القدس ويسحب من الفرنج ذريعة الاستيلاء عليها مجدداً، فخالفهم الرأي قائلاً: «لو نقضنا البناء فلا يبرح النصارى يحجون إلى محلها، ونقضها يثير نصارى الشرق فينضمون إلى نصارى الغرب»[3].

63 - المسيحيون في عهد خلفاء صلاح الدين الأيوبي

سارت العلاقات الأيوبية - المسيحية بعد صلاح الدين على الوتيرة نفسها: حصار فاستيلاء وفتوحات. ففي عام 1196، سار العادل من يافا إلى صيدا إلى بيروت وأخربها «ونهب بيروت وفرّ من كان بها». بينما تشير المصادر القبطية إلى أن العلاقة مع الملك الأيوبي الكامل كانت مقبولة على الإجمال، فقد ترك حرية العبادة للمصريين جميعاً وسرى الشعور بالاطمئنان في قلوبهم ومنح الرهبان 300 أردب من القمح والشعير و 100 من الفول و100 من الترمس. كما أعفى الرهبان من كل ضريبة على أن تعود

(1) إيزيس المصرية، قصة الكنيسة القبطية، طبعة الكرنك، ج3، ص 192 - 193.

(2) ابن الأثير، م.س.، ص 55.

(3) الدبس، يوسف، تاريخ سوريا الديني والدنيوي، ط، العمومية، 1902، ج6، ص 109.

تركتهم بعد الوفاة إلى الدير الذي ينتمون إليه[1].

والجدير ذكره أن خصومات خلفاء صلاح الدين، في سبيل الوصول إلى قمة السلطة، أفقدت هذه السلطة قيمتها ومدّت في أجل الفرنجة. ففي وسط هذه الفوضى الأيوبية، نشأت دويلات أيوبية متعددة في مصر وبلاد الشام والعراق وحماه وحمص واليمن. وكان طبيعياً أن تقع الحروب بين هذه الدويلات، الأمر الذي نتج عنه أن استعاد الصليبيون مقاطعة بعد أخرى، فاستعادوا بيروت العام 1197 وجبيل 1198 وتبنين 1229 والقدس 1243 ويافا والناصرة 1204 وصيدا وصفد 1240 وطبرية 1244[2].

لقد فقد الأيوبيون الوحدة السياسية والتماسك ضد عدوهم المشترك وفقدوا روح الجهاد الذي ألهب مؤسّس الدولة، صلاح الدين يوسف ابن أيوب.

كان الشيء الملفت للنظر آنذاك، أن الأيوبيين كانوا يدمرون المدن والقرى والقلاع في بلاد الشام، التي لا يتمكّنون من المحافظة عليها، فكانت المدن تدمّر عندما تكون في يد الأيوبيين وتعمّر عندما تكون في أيدي أعدائهم الفرنجة. فقد دمّروا بيروت وصيدا وتبنين وقرى صور وغيرها. وأصبح الساحل من صور إلى طرابلس في صراع دائم أدى إلى تدني الاقتصاد، فالأكثرية من الأهالي لم تعد تشعر بالحماية الأيوبية.

والجدير ذكره أنه عندما عادت القدس إلى السيطرة الفرنجية عام 1243 بعدما سلّمها لهم الصالح إسماعيل الأيوبي، نقل ابن واصل مشهداً عما حدث بقوله: «رأيت الرهبان على الصخرة وعليها قناني الخمر ورأيت

(1) إيزيس المصرية، م.س.، ص 193.

(2) مكي، محمد علي، لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني، دار النهار للنشر، بيروت 1977، ص 188- 191.

الحرس في المسجد الأقصى وأبطل الآذان بالحرم وأعلن الكفر وقد أتى وأنا بالقدس الناصر داوود فنزل بضريبة»[1].

حرّك هذا المشهد رغبة المسلمين بالجهاد، ففي عام 1244، قصد الخوارزميون، العاملون في خدمة الملك الصالح، القدس فاستولوا على المدينة المقدسة واحرقوا منازل منها وقتلوا العديد من سكانها.

وفي أواخر أيام الدولة الأيوبية، إضُطهد النصارى مجدداً نتيجة لسوء تصرفهم في دمشق عندما «شمخوا وتجرأوا على المسلمين واستطالوا بتردد التتار إلى كنائسهم وذهب بعضهم إلى هؤلاء وجاؤوا بعده بفرمان يتضمن التوصية بهم والاعتناء بأمرهم ودخلوا بالفرمان من «باب توما» وصلبانهم مرتفعة وهم ينادون بارتفاع دينهم واتضاع دين المسلمين، ويرشون الخمر على الناس وفي أبواب المساجد فحصل عند المسلمين من ذلك هم عظيم».

فعندما غادر التتار دمشق «ثار العوام على النصارى فقتلوا جماعة كثيرة ونهبوا دورهم وأموالهم وذخائرهم وقلعوا الأخشاب وحرقوا جدران المنازل وخربّوا كنيسة مريم وغيرها من الكنائس واستولوا على ما فيها من آنية وكنوز».

استمرت حالة العنف أمداً غير قصير إلى أن وصل المدينة الأمير جمال الدين الصالحي ومعه مرسوم المظفّر قطز، فدخل دمشق وأدخل المنطقة بأسرها في مرحلة تاريخية جديدة مع ابتداء عصر المماليك.

64 - دور المسيحيين في إدارة الدولة

شارك الأقباط بإدارة الدولة الأيوبية في مصر بقدر ما يسمح الشرع الإسلامي بذلك، فمنهم الكاتب والمهندس والوزير، ومن أبرز هؤلاء:

(1) المقريزي، كتاب السلوك، دار الكتاب المصرية، 1934، ج1، قسم 2، ص 315.

- الشيخ أبو سعيد بن أذونة، مستوفي المال في الدولة

- أبو سعيد ابن اليمن بن النحال، وزير العدل

- صفي الدين بن أبي المعالي، كاتب صلاح الدين

- بطرس بن الشعبان الراهب، معلم أولاد العسال

- الأسعد أبو الفرج صليب بن مخايل، صاحب ديوان الملك الصالح

- الطبيب علم الدين أبو النصر جرجس بن أبي خليفة

- ابن المصوف، أمين أموال الحكومة في أيام صلاح الدين

- أبو سعيد بن هيلانة، كاتب صلاح الدين

- أبو الفرج بن مخائيل، رئيس ديوان الملك العادل

- الأسعد بن صدقة، كاتب دار التفاح للملك العادل

- ابن الميقاط، كاتب الملك العادل[1]

65 - المسيحيون والشرع في العهد الأيوبي[2]

«اتصف العهد الأيوبي بانتشار النزاع المذهبي والتشدد الديني كنتيجة مباشرة للحروب الصليبية، وكثر تردد التلاميذ والعلماء إلى دور العلم للتبحر بالعلوم الدينية. وكان سلاطين الأيوبين متمسكين بنصرة الإسلام الذي على المذهب السني، مقدّمين الشرع وأحكامه وأوامره.

اتهمّ الأيوبيون الذمّيين النصارى بالغدر وخيانة العهود وبأنهم عيون على المسلمين يساندون الصليبيين إخوانهم في الدين. لكن ما حيّر وأزعج المسلمين ولم يغفروه، هو وقوف النصارى الذميين إلى جانب التتار الوثنيين.

أفرزت هذه العوامل تشدد فقهاء

(1) إيزيس المصري، م.س.، ج3، ص 236 - 237.

(2) المسيحية عبر تاريخها في المشرق، م.س.، ص 589 - 591.

المسلمين في التزام أحكام أهل الذمة وإصدار الفتاوى الصارمة، كفتاوى ابن تيمية (542 هـ - 621هـ) ومن تتلمذ على يده، وقد عزوا ذلك للحفاظ على الأمن ومصلحة الدولة العليا. ومن أبرز هذه الاجتهادات:

1 - اعتبار العهد عقداً من العقود يُنتقض عند أية مخالفة، وليس هذا العقد حقاً للإمام بل حق لله وعامة المسلمين، والشروط التي تنقضه هي: التجسس، فجور الذمي بمسلمة، ضرب المسلم أو قتله وقطع الطريق.

2 - اعتبار الذمّي مغلوباً محكوماً، واستعلاء المسلم لأنه غالب وحاكم.

3 - عدم مساواة الذمّي بالمسلم في اللباس والمركب والزيّ، ولا يحق للذمّي استخدام الأسماء والكِنَى الإسلامية وإلزامه بلبس القيار، لما في ذلك من المصلحة العامة.

4 - إن الجزية من باب العقوبات، وليست كرامة لأهل الكتاب.

5 - التفريق بين الذميين والمسلمين في المعاملات المالية وفي أحكام العقود والإجازة والمضاربة والمزارعة، وعدم مشاركة الذمي لمسلم في تجارة إلا أن يكون للمسلم أمر التجارة.

6 - منع استخدام الذميين في أي من ولايات الدولة ومرافقها، وعدم إفساح المجال لهم في توجيه سياسة الدولة.

7 - التشدد في أمر الكنائس (البِيَع) لجهة إحداثها أو هدمها، على أن يتوخى ذلك المصلحة العامة التي تختلف باختلاف الظروف، استناداً إلى قول ابن عباس: «أيما مصر مصرته العرب فليس لأحد من أهل الذمة أن يبني فيه بيعة ولا يضرب فيه ناقوساً ولا يشرب فيه خمراً ولا يتخذ فيه خنزيراً».

8 - إن أرض الكنائس طاهرة تجوز الصلاة فيها وتحفظ عن الكنائس التي في سقوفها وجدرانها صور. ولا مانع للنصارى من إقامة احتفالاتهم الدينية في قراهم أو ضمن كنائسهم،

على ألا يحتشدوا احتشاد المتظاهرين في مجتمعات المسلمين. أما في القرى الإسلامية فلم يأذنوا لهم بإقامة هذه الشعائر. ولا يعني هذا منع العبادة لذاتها بل المحافظة على الأمن وخشية الفوضى والاضطراب.

بلغ التشدد في أحكام أهل الذمة درجة الغلوّ، حتى أنه كان مكروهاً أن يبدأ الذمي بالسلام، وكيفية الرد عليه أيضاً له طرقه. كذلك منع الذمي من الرطانة في العربية ونقشها على خاتمه».

خلاصة

«استمر العهد الأيوبي مدة قرن من الزمن، تعدّدت فيه أسباب الحروب وتلطى الجميع وراء الدين ليزيدوا الحرب اشتعالاً. ومن خلال ما سمحت به الوثائق نورد الخلاصات التالية:

1 - فرّق سلاطين الأيوبيين وأمراؤهم بين المسيحي المقيم والمسيحي الطارئ، كما حدث في الرها والقدس والمدن الأخرى، فأقروا إقامة المسيحيين الشرقيين في قراهم ومدنهم أو مشاركة المسلمين، على أن يلتزموا أحكام أهل الذمة.

2 - دفع المسيحيون الشرقيون غالياً من أنفسهم وأرزاقهم نتيجة الفعل وردات الفعل من أية جهة أتت، كالسلب والسبي والحرق والقتل، وكانوا ضحية الحرب الشرسة بين الأيوبيين والصليبيين والتتار.

3 - عتب الأيوبيين على المسيحيين الشرقيين لأنهم ساندوا الصليبيين والتتار، لا بل اتهموهم بالتآمر والخيانة.

4 - أتت الكنائس اللاخلقيدونية (اليعقوبية) في المقدمة على غيرها في العصر الأيوبي. فالأقباط هم أبناء مصر، مركز الدولة الأيوبية، والأحباش جيران مصر وليس لهم علاقة بهذه الحرب. أما الأرمن فهم على تفاوض وتواصل لأنهم أبناء المنطقة التي انطلق منها الأيوبيون.

5 - بقي الشك والحذر قائمين عند الأيوبيين من المسيحيين الشرقيين، مع الإشارة إلى أن خلافات البيت الأيوبي جعلت أمراء أيوبيين يراسلون

الصليبيين ويتعاونون معهم. ولم يحاول سلاطين الأيوبيين وضع أسس ثابتة لاستيعاب المسيحيين. فبعد أن هاجم الإمبراطور فردريك الثاني، ملك ألمانيا، الشرق، كتب أمير الأرمن إلى الملك الأيوبي يخبره بذلك. وقد أورد أبو شامة هذا الخبر مشكّكاً في صدق نوايا أمير الأرمن.

6 - من الواضح أن فقهاء العصر الأيوبي اجتهدوا وتشددوا في أحكام أهل الذمة والتزموا حدود الدين، لكن لم يُسجل أن أحد سلاطين هذه الدولة أضاف مادة واحدة إلى هذه الأحكام كما حدث في العصر الفاطمي، والذي اتُّهم فيه النصارى بأنهم حلفاء هذا العهد، سواء أكانوا من دار الإسلام أو من دار الحرب».

* * *

القسم الثاني

الحضارة المسيحية ودورها في العهدين المملوكي والعثماني

(1918 - 1260)

الفصل الثالث

دور المسيحيين خلال عهدي المماليك والعثمانيين

(1260 - 1650)

1 - في العهد المملوكي

11 - توطئة

تميّز منتصف القرن الثالث عشر (1250) بحادثين اثنين، على غاية من الخطورة: قيام دولة المماليك الذين خلفوا صلاح الدين واستولوا على المملكة التي أنشأها، وغزوة المغول التي عرّضت المشرق برمته إلى فترة خراب وفوضى.

بعد وفاة صلاح الدين، تشرذمت دولته، كما ذكرنا، إلى ممالك يحكمها أفراد من بيت الأيوبي الذين تصارعوا فيما بينهم على رئاسة الدولة، وبما أن أحداً منهم ما كان يملك القوة العسكرية لتحقيق غرضه، راح أولئك الملوك يشدون أزرهم بجيش من المماليك. فكان كل واحد منهم يشتري أعداداً من الأرقاء البيض ويعمل على تربيتهم كي يكون ولاؤهم له وحده.

وبين 1239 و 1249، اشترى السلطان نجم الدين أيوب، سلطان مصر، أعداداً كبيرة جداً من الأرقاء. وسهر على تربيتهم تربية إسلامية محضة، كما دربهم على فنون الفروسية والقتال وأغدق عليهم الأموال والهدايا، فكان من الطبيعي جداً أن يكونوا قادة الجيوش، وعرفوا، هؤلاء بالمماليك البحريين، نسبة إلى المكان الذي تربوا فيه، في جزيرة الروضة المصرية المطلة على نهر النيل أو كما يسمونه المصريون ببحر النيل.

كان هؤلاء المماليك ينتمون إلى الأتراك أو المغول أو الشركس. وكانوا يُبتاعون في سوق النخاسة في البلاد الروسية أو القوقازية. تزوج السلطان نجم الدين جارية تركية تسمى «شجر الدر»، كان قد أهداها له الخليفة المستعصم، وكانت جميلة للغاية، واسعة الحيلة شديدة الدهاء، وقد تعلق بها السلطان وميّزها عن كل الجواري والنساء في قصره وأنجبت له ولده خليل فصارت تعرف «بأم خليل». وقد شاركت زوجها في السياسة العامة فكسبت خبرة إدارية أهّلتها لاحقاً لتأسيس دولة المماليك. توفي السلطان نجم الدين وجيشه في ساحة القتال مع الفرنجة، فكتمت شجر الدر خبر وفاته كي لا تدب الفوضى بين عناصره (1149). وهكذا استمر الجيش في خوض المعركة حتى انتصر واسر الملك الفرنسي، لويس التاسع [1].

استدعت شجر الدر، «توران شاه» ابن زوجها ليعتلي العرش الشاغر. عاد هذا الأخير بأقصى سرعة من حصن كيفا في ديار بكر (جنوبي تركيا) إلى القاهرة واستلم الحكم، لكنه كان أحمقاً، سريع الغضب، قاسي اللهجة عديم اللياقة، ويستطيب إذلال الناس، وكان لسانه يسبق تفكيره، فكثر أعداؤه خاصة بعدما تعرض بالسوء للمماليك الذين رباهم والده والذين تفانوا في خدمته، إذ شرع بعزل البعض منهم والاستعاضة عنهم بآخرين صغار السن

(1) Maalouf, op. cit., P, 237.

من حديثي الخدمة في الجيش، وهذا يتناقض مع التراتبية العسكرية ويخلق الحقد والحسد بين عناصره المقاتلة. ثم عمل على إذلال شجر الدر وتخوينها، فطالب بما تملك من جواهر وأموال وهددها مراراً، فخافت على نفسها من غدره فاتفقت مع المماليك على قتله مهما كلف الأمر، وقد نفذت ما كانت قد خططت له. ففي عام 1250، وأثناء اجتماعه بالمماليك، استلّ أحدهم سيفه وضربه فتلقاه بيده مما أدى إلى قطع بعض أصابعه فهاله الأمر وفرّ مسرعاً إلى داخل برج خشبي قرب الشاطئ. دخل المماليك هذا البرج وأوقدوا النار حوله فخاف وراح يصرخ بأنه سيترك العرش ليذهب إلى حصن كيفا، لكنهم قطعوه بسيوفهم إرباً إرباً ورموه على الشاطئ لمدة 3 أيام وبعدها دفن بأمر من شجر الدر.

بعد موته أضحى المماليك بلا قيادة رئيسية وافتقروا إلى الأموال لمواجهة الملوك الأيوبيين في بلاد الشام، ففاوضوا الملك الفرنسي الأسير على دفع فدية مقدارها مليون دينار، لإطلاق سراحه. وقد دفعها وأطلقوا سراحه وضمنوا وصوله سالماً إلى عكا. ولم يطل الوقت حتى قرّ رأي المماليك على إسناد العرش الأيوبي إلى شجر الدر لأكثر من سبب: فهي مملوكية وأعتقت وأيوبية وتتمتع بعقل راجح وجودة تدبير. التف حولها المماليك وجعلوا «عز الدين أيبك التركماني» أحد كبار أمرائهم أتابكاً لها، أي قائداً للجيش ومساعداً في تسيير أمور الحكم. ودعا لها الخطباء على المنابر في مصر بعد الدعاء للخليفة العباسي، وكانت أول امرأة يسند إليها العرش في دولة إسلامية. وبعد 3 أشهر من زواجها من الأتابك عز الدين أيبك، تنازلت له عن العرش الأيوبي. وهكذا تم إقصاء الأيوبيين عن الحكم، واستطاعت السلطنة الناشئة من إمساك زمام الحكم لا سيما خلال عهد الظاهر بيبرس (1260 - 1277).

12 - جولة أفق عامة عن الوضع طيلة العهد المملوكي

في عهد السلطان بيبرس أصلحت

السلطة بين الإدارتين العسكرية والمدنية الموروثة من أيام الأيوبيين وطورتها وعززتها. ففي قمة الدولة المملوكية كانت تسود طبقة العسكر التي كانت قادرة على تجديد نفسها من خلال الاستمرار في شراء العبيد من أسواق الشرق الأوسط. أما الاستقرار النسبي في إدارة الشؤون الحكومية فكان على تناقض حاد مع عدم الاستقرار داخل الطبقة الحاكمة حيث كانت المكائد والانقلابات دارجة. فقد كانت تتخلل فترات تعاقب السلاطين بسرعة فترات كان يتمكن خلالها أحد السلاطين من فرض سلطته والحفاظ عليها. إذ تبرز بعد فترات التوحيد في عهدي الظاهر بيبرس ومن بعده قلاوون الألفي (1279 - 1290)، فترات الناصر محمد (1310 - 1341) والأشرف شعبان (1363 - 1377) والظاهر برقوق (1382 - 1399)، والأشرف برسباي (1422 - 1438) والظاهر شقماق (1438 - 1453)، والأشرف قائدبيه (1468 - 1498). يُقسم عصر الممالك إلى فترتين: فترة البحريين وفترة البرجيين، وهذه الأخيرة تبدأ في العام 1382. فالبحريون كانوا في معظمهم أتراكاً من سهول القفجاق الممتدة شمالي بحر قزوين، بينما البرجيون كانوا في معظمهم من الشركس.

بينما كانت الاضطرابات الدموية والفوضى الاجتماعية والاقتصادية مستمرة في أوساط الفرنجة وفي أوساط الأيوبيين، كان المغول بقيادة هولاكو يجتاحون العراق ويدمرون بغداد ثم يغيرون على حلب، وبظهور المغول أصبح في بلاد الشام، والمشرق قوة ثالثة تلعب دورها. كان المغول يؤمنون بالمسيحية على المذهب النسطوري، فخالفهم المسيحيون الشرقيون والأرمن، وبسبب ارتباط فرنجة أنطاكية وطرابلس بالأرمن فقد حالفوا بدورهم المغول الذين احتلوا بلاد الشام ووصلت طلائعهم إلى غزة تمهيداً للهجوم على مصر. لكن فرنجة صيدا رفضوا التفاهم مع المغول وراحوا يهاجمونهم في جنوب لبنان. وسمحوا للمماليك بالمرور عبر فلسطين بقيادة قطز وبيبرس، والتقى المماليك بقوات

المغول التي كان كتبغا يقودها، في عين جالوت في 3 أيلول 1260، حيث كان الانتصار الساحق للماليك وتدمير قوة المغول ومقتل كتبغا.

وكانت النتيجة الفورية لهذا الانتصار الكبير تراجع المغول عن سوريا، وسقوط دمشق بيد المماليك وبذلك توحدت مجدداً مصر وسوريا.

قضى بيبرس على قطز وأعلن نفسه سلطاناً على مصر والشام وراح يهاجم مراكز الفرنجة اعتباراً من سنة 1265 فأحتل صفد وهونين وتبنين والرملة وأرسل قائده قلاوون إلى شمال لبنان فاحتل حلب والقليعات وعرقا في عكار. واصطدم بيبرس مراراً بموارنة لبنان النصارى عندما كان يقترب من طرابلس. فتركها وانتقل إلى أنطاكية فاحتلها وسبى أهلها. وباعماية ألف نسمة بسوق الرقيق: المرأة بخمسة دارهم.

بعد موت بيبرس عام 1277 تمكن قلاوون عام 1279 من انتزاع السلطة، وفي سنة 1280 سيطر على الشام ووحد مصر وسوريا. وفي السنة 1281، تجدد القتال بين قلاوون والمغول انتصر قلاوون عليهم بنهاية السنة. استفاد قلاوون بعد انتصاره على المغول، من الهدنة مع الصليبيين، فقام في عام 1283 باحتلال المناطق المارونية المحيطة بطرابلس والتي كانت تساعد المدينة ضده. لم يتحرك الفرنجة لنجدة الموارنة مما سمح له باحتلال المنطقة المارونية والتنكيل بقرى إهدن وبشري وحدث الجبة بعنف بالغ، نظراً لعلاقة الموارنة بالصليبيين في طرابلس ومساعدتهم لهم ضد السلطان بيبرس.

قال الدويهي: «في شهر أيار 1283، سارت العساكر الإسلامية إلى فتح جبة بشري وصعدت إلى وادي حيرونا شرقي طرابلس، وحاصروا إهدن حصاراً شديداً وملكوها بعد 40 يوماً.. وسلبوا وخرّبوا... ثم احتلوا ميفوق في شهر تموز وقبضوا على أكابرها وأحرقوهم في البيوت ودكوها للأرض. وأكثروا من النهب والسلب... وعملوا السيف في أهل حصرون وكفر صارون وذبحوهم في الكنيسة... وقد

هرب الألوف من الموارنة إلى قبرص».

لقد كان عصر المماليك، على وجه الإجمال، عصر استقرار ونجاح نسبي. فشيّدوا المباني في كافة المدن الكبرى بالمنطقة، من القاهرة، إلى القدس، إلى دمشق، إلى طرابلس، إلى حمص، إلى حلب. كما أن السياسة الدينية شجّعت أمراء المماليك الأثرياء على إقامة الأوقاف والإنفاق عليها. وثروة الأمراء كانت تستند في معظم الأحياء إلى استغلال إقطاعاتهم والفلاحين المقيمين فيها. والمجاعة لم يتم تفاديها إلا من خلال إقدام السلطان على إجبار بعض الأمراء على فتح مخازن الحبوب لأنهم كانوا يحتكرونها لحمل الأسعار على الارتفاع خلال فترات نقص المؤن والقوت أثناء فيضان النيل المفرط. إلى جانب هذه المجاعات كانت الأمراض السارية مثل الطاعون، تفتك بالأهالي، حتى توصل الفتك بـ بثلث السكان. مما يؤدي إلى نقص باليد العاملة، لا سيما في الحِرَف، مما استتبع تضخم الأسعار، فتقلّصت مساحة الأراضي المزروعة وهجر الفلاحون الأرض.

13 - دور المسيحية في حد ذاته خلال عهد المماليك

يمكننا الآن أن ننظر إلى دور المسيحية، من حيث علاقته بالإطار العام في مستويات ثلاثة: وجود الكنائس الرسمي ومكانتها من حيث علاقتها بالدولة، ودور المسيحيين داخل الدولة، وتجربة المسيحيين كجزء من عامة الشعب، أي الرعية، علماً أن المستويين الأخيرين متداخلان تداخلاً وثيقاً.

بقيت المجتمعات المسيحية، على المستوى الرسمي، تقريباً على حالها ولم تشهد تغييراً يذكر في أحوالها عقب نهاية السلطنة الأيوبية. فقد بقي المسيحيون «أهل الكتاب» و«أهل الذمة» من حيث الوضع القانوني الإسلامي، كما أن تشييد الكنائس ظل على ما كان عليه من دون تغيير. فقد كان المماليك أكثر تشدداً في المحافظة على الوضع القانوني للكنائس وتراتبية

الإكليروس. ويذكر القلقشندي، وهو كاتب من كتّاب المماليك البحريين (توفي 1418) في موسوعته الإدارية «صبح الأعشى»، أخبار اثنين في البطريركيات الرسمية، وهما بطريركية الأرثوذكس البيزنطيين (الملكيين) ومركزها دمشق، وبطريركية اليعاقبة الأقباط ومركزها القاهرة. ويورد عدداً من رسائل التعيين التي تشير إلى أن الكنائس، وأن استمرت في اختيار بطاركتها، فإن الموافقة على هذا الاختيار من خلال كتاب تعيين من ديوان قاضي قضاة الدولة كان جزءاً متوقعاً من أصول التولية. وكان على الكنيسة مسؤولية الحفاظ على النظام داخل المجتمع المسيحي.

في السنة 1268 انتخب الإكليروس الأنطاكي ثيودوسيوس الرابع، بطريركاً على أنطاكية مكان البطريرك المتوفي. وفاوض الإمبراطور البيزنطي ميخائيل الرابع بيبرس في أمر بطاركة الكرسي الأنطاكي. فاعترف السلطان برئاستهم وسمح بانتقالهم من أنطاكية إلى دمشق[1].

لقد ضيق المماليك في بعض الأوقات على النصارى وأوجبوا الحد من نفوذهم. ففي السنة 1277 «هدم الملك الظاهر بيبرس كنيسة النصارى بالقدس وقتل راعيها بيده وعملها زاوية. وهدم كنيسة الروم بالإسكندرية وهي كرسي كنائسهم يعقدون بها «التبركة»، وجعلها مسجداً وسماها المدرسة الخضراء[2]. وفي سنة 1364 «ورد الخبر بمنازلة الفرنج مدينة الإسكندرية فتتبعت النصارى وأحضر البطريق والنصارى وألزموا بحمل أموالهم لفكاك أسرى المسلمين. وكتب بذلك إلى البلاد الشامية»[3]. وفي السنة 1442 «ختم على كنائس النصارى المكيين في مصر لأنه وجد داخلها

(1) رستم، م.س.، ج2، ص 339 - 340.

(2) رستم، م.س.، ج2، ص 349.

(3) المرجع نفسه.

أعمدة كذّان من الحجارة المنحوتة وأكتاف جدد وحصل على جميع أهل الطوائف من أهل الذمة من الإهانة والتغريم ما لا يزيد عليه»[1]. وفي السنة 1447 «أمر السلطان بهدم كنيسة النصارى الملكيين التي بقصر الشمع في مصر وأمر ببيع أنقاضها وأن يعمّر بثمنها المسجد القديم الذي كان بجانبها. وجعل كرسي البطريرك منبراً. وأخذت جميع عددها من زجاج ونحاس وجعلت في الجامع»[2]. وفي السنة 1448، «أسلم على يد برهان الدين النعماني ثمانون كافراً وإنه لم يبق في قصر الشمع ولا في الجيزة ولا في المدينة كنيسة للنصارى إلا وقد شملها من السيد أما هدم أو بعض هدم وإما إزالة منبر أو قونونة وهي الأخشاب التي تصنع منها التماثيل أو إزالة حجاب وهي المقاصير التي تجعل على الهياكل»[3].

وفي أيام السلطان الظاهر جقمق «جهّز خاصكياً اسمه إينال باي فحضر إلى القدس الشريف بمرسوم من الملك الظاهر بالكشف على الديارات وبهدم ما استجد بدير صهيون وغيره وانتزاع قبر داوود من النصارى. فهدم البناء المستجد بصهيون وأخرج قبر داوود من أيدي النصارى ونبشت عظام الرهبان المدفونين بالقبو الذي به قبر داوود. وأخرج المسجد من دير السريان وسلم للشيخ محمد المثمر وصار زاوية. وهدم البناء المستجد ببيت لحم وبالقمامة (القيامة) وقلع «الدرابزين» الخشب المستجد بالقمامة وصودرت الأخشاب التي نقلت إلى مكان آخر وكشف جميع الديارات وهدم ما استجد. وكان ذلك في أواخر عمر السلطان فختم الله أعماله بالصالحات وإزالة الديارات المنكرات»[4].

(1) مماثل، ص 350.
(2) المرجع نفسه.
(3) المرجع نفسه.
(4) رستم، م.س.، ج2، ص 350.

ونقل القلقشندي براءة سلطانية وجهها السلطان إلى البطريرك الأنطاكي في العام 1412 وهذا نصها[1]:

«أما بعد حمد الله الذي جعلنا نشمل كل طائفة بمزيد الإحسان ونفيض من دولتنا الشريفة على كل بلد اطمئناناً لكل بلد وإيمان. ونقّر عليهم من اختاروه ونراعيهم بمزيد الفضل والامتنان. والشهادة بأن الله الذي لا إله إلا هو الواحد الذي ليس في وحدانيته قولان. والفرد المنزّه عن الجوهر والأقنوم والوالد والولد والحلول والحدثان. شهادة أظهر إقرارها اللسان وعمّت بها الجوارح والأركان. والصلاة والسلام على سيدنا محمد عبده ورسوله المبعوث إلى كافة الملل والإنس والجان. الذي بشّر به عيسى وآمن به موسى وأنزل عموم رسالته في التوراة والإنجيل والزبور والفرقان. فصح النقل بنبوته وآدم في الماء والطين وأوضح بذلك البرهان. وعلى آله وصحبه الذين ساروا بإخلاص الوحدانية وشادوا أركان الملة المحمدية وأعزوا الإيمان وأزالوا الطغيان. صلاة ينفح طيبها ويفصح خطيبها ويفرح بها الرحمن.

فإن أولى من أقمناه بطريركاً على طائفة النصارى الملكية على ما يقتضيه دين النصرانية والملّة العيسوية حاكماً في أمورهم مفصحاً عما كمن في صدورهم. من هو أهل لهذه البطريركية وعارف بالملة المسيحية. اختاره لها أهل طائفته لما يعلمون من خبرته ومعرفته وكفايته ودربته. وندب إلى ولاية يستحقها على أبناء جنسه ورغب في سلوكها له مع إطابة نفسه. مع ما له من معرفة سرت أخبارها وظهرت بين النصارى آثارها. وكان البطريرك ميخائيل أدام الله بهجته هو من النصارى الملكية بالمعرفة مذكور وسيره بينهم مشهور. القائم فيها بالسيرة الحسنة والسالك في مذهبهم سيراً تشكره عليها الألسنة.

(1) مماثل، ص 353.

فلذلك رسم بالأمر الشريف لا زال إحسانه العميم لكل طائفة شاملة وبره الجسيم لسائر الملل بالفضل متواصلاً أن يستقر بطركاً على النصارى الملكية بالشام وأعماله على عادة من تقدمه بذلك. وتقوية يده على أهل ملته من تقادم السنين بحكم رضاهم. ومنع من يعارضه في ذلك حملا على ما بيده من التوقيع الكريم المستمر حكمه إلى آخر وقت.

فليباشر هذه البطريركية مباشرة محمودة العواقب مشكورة لما تجلت به من جميل المناقب. وليحكم بينهم بمقتضى مذهبه. وليسر فيهم سيراً جميلاً ليحصل لهم غاية قصده ومأربه. ولينظر في أحوالهم بالرحمة. وليعمل بتعلقاتهم بصدق القصد والهمة. وليسلك الطرق الواضحة الجلية، وليتخلق بالأخلاق المرضية. وليفصل بينهم بحكم مذهبه في مواريثهم وأنكحتهم. وليعتمد الزهد في أموالهم وأمتعتهم. حتى يكون كل كبير منهم وصغير ممتثلاً لأمره واقفاً عندما يتقدم به إليه في سره وجهره. منتصبين لإقامة حرمته وتنفيذ أمره وكلمته. وليحسن النظر في من عنده من الرهبان وليرفق بذوي الحاجات والضعفاء من النساء والصبيان. والأساقفة والمطارنة والقسيسين زيادة للإحسان إحساناً جارياً في المساء والصباح والغدو والرواح.

فليمتثلوا أمره بالطاعة والإذعان. وليجيبوا نهيه من غير خلاف ولا توان. ولا يمكن للنصارى في الكنائس من دق الناقوس[1]. ورفع أصواتهم بالضجيج ولا سيما عند أوقات الآذان لإقامة الناموس. وليتقدم إلى جميع النصارى بأن كلاً منهم يلزم زيه وما جاءت به الشروط العمرية عمر بن الخطاب رضي الله عنه لتكون أحوالهم في جميع البلاد مرعية. وليخش عالم الخفيات، ويستعمل الأناة والصبر في جميع الحالات. والوصايا كثيرة وهو

(1) «إذا أرادوا الصلاة ضربوا بالناقوس. وهو خشبة مستطيلة يضرب عليها بخشبة لطيفة فيجتمعون» - صبح الأعشى، للقلقشندي، ج13، ص 214.

بها عارف. والله يلهمه الرشد والمعارف».

ومما تجدر الإشارة إليه لهذه المناسبة التنبيه السلطاني بوجوب التقيد بشروط عهدة عمر بن الخطاب واعتبارها واجبة شرعاً.

يبدو أنه كان للدولة المملوكية همّان أساسيان فرضتهما على البطاركة. كان عليهم أولاً، حث مجتمعاتهم على المحافظة على الوضع القائم. فقد كان لكل من الدولة والكنيسة، مصلحة مشتركة في تثبيت التقاليد وقمع التجديد. وكان البطاركة أو المطارنة، يقدمون أحياناً على الاستعانة بسلطة الدولة ليفرضوا إرادتهم على رعاياهم عند الاقتضاء. وثانياً كان ينظر إلى الكنيستين، اليعقوبية والملكية كوسيلة ممكنة للفتن. لقد كان المماليك يدركون العلاقات بين الملكيين والقسطنطينية إدراكاً جيداً، وكان هؤلاء، في كثير من الأحيان، في عداد المعارضين للحكام الفرنجة الكاثوليك. وفي كل الأحوال فقد كان البطريرك الملكي يُحث في كتاب تعيينه، على «تحاشي البحر، ومحاذرة التسرع في ركوبه جهلاً، لأنه سيغرق». أما النظرة للبطريرك القبطي، فكانت أكثر غموضاً والتباساً. فقد كان المماليك يعرفون جيداً الصلات الوثيقة التي تربطه بالكنيسة في أثيوبيا، ومع أن هذه المنطقة لم تكن مهمة استراتيجياً، فقد كان ثمة إحساس بأن الفتن قد تجد لها طريقاً من هناك «وعليه ألا يتنسّم نسائم الجنوب».

ولكن يبدو أن دور المسيحيين في دواوين الحكومة هو الذي حدد مصيرهم إجمالاً. لقد ظلّت الحكومة المملوكية تعتمد اعتماداً كبيراً على المسيحيين لملء الدواوين، لا سيما دواوين الإدارة المالية.

لقد أصبح اسم الأقباط في مصر مرتبطاً بالإدارة الحكومية، فكان من الطبيعي أن يبغضهم الشعب، حتى شمل البغض المجتمع المسيحي كله، وكأن كافة المسيحيين مشتركون في الجرم. لذلك كان أكثر العلماء المسلمين، عن حسد أو عن بغض متنامي، يدعون السلطة إلى تطبيق

الشروط العمرية تطبيقاً كاملاً، مع كل ما يستتبع ذلك بالنسبة إلى قواعد اللباس، والصرف من الخدمة، وتهديم الكنائس.

على امتداد فترة الحكم المملوكي، كان ممكناً تعبئة جماهير المسلمين بعضهم ضد بعض، تحقيقاً لغايات سياسية، تتوخاها الفرق المتصارعة على اختلافها. ولذلك كثيراً ما كان استهداف المسيحيين وسيلة سهلة لتشتيت الانتباه. وكان من السهل جداً حمل العوام في المدن على مهاجمة الكنائس أيام الركود الاقتصادي والمجاعة، يستتبعها دعوات إلى صرف المسيحيين من دواوين الدولة. والجدير ذكره أنه في العام 1354، انتشرت سلسلة من أعمال الشغب في القاهرة وامتدت إلى أماكن أخرى في مصر. فكان حجم تهديم الكنائس أكبر بكثير من المعتاد. وكان الحكم المملوكي قد قاوم سابقاً الدعوات إلى تبني نتائج حوادث كهذه، والواقع أن المماليك كثيراً ما كانوا يأذنون بإعادة بناء الكنائس ما أن تهدأ المشاعر الشعبية.

غير أن الحكام تحركوا، هذه المرة لتكملة عملية تهديم الكنائس على أيدي الرعاع، فقاموا بعملية مصادرة واسعة النطاق لممتلكات الكنائس. ويبدو أن ثمة صلة مباشرة بين ما عقب ذلك من هبوط حاد في الموارد التي كانت الكنيسة تتصرف بها والارتفاع الحاد في تحوّل الطبقات المتوسطة والعليا إلى الإسلام، وقد كانوا يُوسمون باسم خاص ألا وهو «المسالمة» وهو لفظ لا يستعمل عادة من قبل المدح. فقد كان عامة الشعب يرتابون من كون «المسالمة» يحابون أقاربهم وأبناء ملّتهم السابقة.

2 - في العهد العثماني حتى عام 1650

21 - توطئة

خلافاً للدول الشرقية السابقة التي دُمّرت بعدما هرمت ووهنت قواها فخلفتها دول أكثر فتوة، كانت دولة المماليك حتى أوائل القرن السادس عشر، قوية بالمقدار الكافي كي لا تخاف مصيراً مماثلاً. وكانت كلما

ازدادت حال البلاد الاقتصادية، الواقعة تحت حكم المماليك، سوءاً، فقد المماليك قوتهم ونفوذهم. وكان العدو المتربّص بهم في الشمال يشاركهم العقيدة الدينية - نفسها «السنّة»، ولكنه كان أصلب عوداً من كل عدو آخر واجهوه في ساح القتال. هؤلاء هم الأتراك العثمانيون الذين كانوا في أول عهدهم، قبائل من البدو الرحّل يجوبون فيافي أواسط آسيا. وقد انفصلت عنهم بعض القبائل التي أصبحت فيما بعد تعرف «بالعثمانيين» تيمّناً باسم جدهم وزعيمهم «عثمان». فقد أنشأوا لهم دولة قامت على أنقاض دولة السلاجقة. وفي السنة 1453، استولى سلطانهم محمد الثاني، على عاصمة البيزنطيين «القسطنطينية» وجعلها عاصمة لملكه ودولته، ودخلت العلاقات العثمانية - المملوكية، في طور التوتر الشديد.

في شهر آب 1514، وقف الجيش العثماني وجهاً لوجه أمام الجيش الفارسي في ميدان القتال قرب بحيرة «أورمية»، ولم تدم المعركة طويلاً، إذ انهزم الفرس الصفويون أمام هجمات الفرق «الانكشارية» في جيش السلطان سليم الأول الذي احتل عاصمتهم «تبريز» وقسماً من أرمينيا والعراق.

22 - معركة مرج دابق (1516)

في العام 1516، زحف الجيش العثماني نحو بلاد الشام، الأمر الذي حمل السلطان المملوكي «قانصوه الغوري» على التوجه بجيشه من مصر إلى سوريا، لملاقاة جيش عدوه بقيادة السلطان العثماني سليم الأول، القادم من البقاع التركية، عبر هضبة الأناضول.

مرّ السلطان الغوري في دمشق فاستقبله نائبها سيباي، الذي دعا له «بالعز والنصر المبين»[1]، ثم انتقل إلى حماه حيث لاقاه نائبها «جانبردي

(1) معارك العرب، ج18، دار نوبلس، ص 35.
حتّي، م.س.، ص 431.

الغزالي»، ومن ثم إلى حلب فاجتمع مع خاير بك. وأصبح الجيش المملوكي يضمّ قوات خير بك والغزالي وسيباي والأمراء اللبنانيين وعلى رأسهم الأمير المعني فخر الدين الأول.

في 24 آب من العام نفسه، وقعت المعركة الكبرى والفاصلة بين الجيشين في «مرج دابق»، شمال حلب وقد تمكّن العثمانيون من استمالة الغزالي وخاير بك اللذين انضما إليهم مع عدد من الأمراء اللبنانيين، مما بدل سير هذه المعركة وجعلها تميل في النهاية لمصلحة السلطان العثماني.

كان العثمانيون يعتمدون على سلاح المدفعية، فيما المماليك يعتمدون على سلاح الخيالة. ولم يطل الأمر حتى قتل السلطان المملوكي الغوري وتشتت جنده وانفتحت أمام السلطان سليم الأول بلاد الشام ودانت له وخضعت، مستبشرة خيراً بعهده الذي قام على أنقاض دولة لم يعرف المشرق حكماً يشبه حكمها في جوره وفوضاه وتعصّبه الديني الشديد. لذلك استقبله أهاليها كمنقذ ومحرر، بعد أن أرهقهم حكم المماليك وجعلهم يترقبون الفرج من أي غازٍ جديد.

ولما تمّ للسلطان العثماني فتح البلاد الشامية، ولّى الغزالي عليها[1].

استغرقت معركة مرج دابق «من طلوع الشمس إلى ما بعد الظهر». وقد بلغ عديد الجيش التركي نحو 40 ألفاً مجهّزين بأحدث المدافع المعروفة آنذاك، وقيل إن العدد كان 80 ألفاً مجهزين بثمانماية مدفعية، مقابل 40 ألفاً من المماليك دون مدافع، متكللين على خيالتهم. ويقال إن عسكر الشام والشوف والساحل، قدر بحوالي 13 ألفاً من خيالة التيمار والزعامات والمرتزقة.

وبدون أدنى شك، ومع مرور الأيام، بلغت الدولة العثمانية مستوى

(1) معارك العرب، ج18، م.س.، ص 35.
حتّي، م.س.، ص 440.

عالٍ من العظمة والتوسع وأصبحت في مصاف الدول الكبرى في العالم، بعد أن كانت في بادئ الأمر قبيلة صغيرة لا شأن لها. ففي القرن السادس عشر امتدّ سلطانها ليشمل كل البلاد العربية، إضافة إلى آسيا الصغرى والبلاد البلقانية وأجزاء أخرى من أوروبا، وصلت أحياناً إلى حدود فيّنا عاصمة النمسا والمجر، وأجزاء من أفريقيا.

نعم لقد دامت سيطرة العثمانيين على هذه البلدان حتى بدايات القرن العشرين (1918)، أي طوال أربعة قرون كاملة. إن الدولة العثمانية هذه، خَلَفَتْ الإمبراطورية البيزنطية المسيحية، في آسيا الصغرى والبلقان، وخلفت دولة الخلفاء المسلمين، في البلدان الإسلامية العربية والمستعربة.

23 - الإدارة المركزية والرعايا والطوائف المسيحية

كانت الدولة العثمانية، «تكوّن طبقة عليا تستر في ظلها جميع العناصر الأصلية: ديانات متنوّعة، وثقافات ولغات متعددة، وتجمّعات عرقية... فرجال الدين هم من العرب، والتجار ورجال المال من اليونان أو من الأرمن أو من اليهود... وفي جوار جماعة الفاتحين (العثمانيون)، كانت تقوم جماعات عنصرية وثقافية أخرى..»[1].

كان الدين الإسلامي سنداً للدولة العثمانية وأداة بيد السلطة. فالسلطان كان يعيّن الرؤساء الدينيين ويقيلهم، ولم تكن سلطتهم تتميز عن سلطة الدولة.

كان الحكم العثماني عسكرياً ومدنياً في آن، وكان مثالاً للدولة البوليسية. البعض يقوم بأعمال البوليس والحرب ويستفيد منها، والآخرون يدفعون ولا يحاربون.

بعد احتلال القسطنطينية، تقدم مفتي العاصمة على زملائه في الولايات، فأصبح يلقب «بشيخ

(1) بولس، جواد، التحولات الكبيرة في تاريخ الشرق الأدنى منذ الإسلام، دار عواد للنشر، دون تاريخ، ص 312.

الإسلام». وكانت سلطته كسلطة الوزير الأكبر أو «الصدر الأعظم»، غير ثابتة في جوهرها، لأن السلطان كان يستطيع في كل لحظة أن يضع حداً لها بالعزل أو بالإعدام. وكان اجتهاد القضاة يرتكز على الشريعة الدينية الإسلامية، بعد فتوى شيخ الإسلام.

كان رعايا السلطان جميعهم، بمن فيهم أصحاب المقامات في الدولة، يُعتبرون عبيداً له، ويُعرفون رسمياً بهذا الاسم «نحن عبيد السلطان، ملة الأروام.. إلخ». والشخصيات الرسمية جميعاً، ابتداء من الصدر الأعظم، كانوا معرّضين لفقد حظوتهم وللموت، نتيجة لغضب السلطان أو لإحدى نزواته.

إن الدولة العثمانية، الإسلامية، الثيوقراطية بجوهرها، كانت كالدول الإسلامية التي سبقتها، تميز المسلمين من غير المسلمين في رعاياها. فالرعايا المسيحيون كانوا يُعتبرون، بصفتهم ذميين، من الدرجة الثانية أو من درجة أدنى وفي بعض الأحيان من الأعداء، فإذا تحولوا إلى الإسلام، يصبحون مواطنين كاملي المواطنية، كما كانوا يدفعون الجزية أيضاً.

كان العثمانيون يصنفون الرعايا المسيحيين بحسب الكنائس التي ينتمون إليها، بصرف النظر عن قومياتهم. وكان الأرثوذكس يُعتبرون من الأروام أو من ملّة الروم أي من البيزنطيين الإغريق.

لقد أصبح بطريرك الروم الأرثوذكس، في القسطنطينية، الرئيس المدني لجميع المسيحيين النصارى من اتباع الطقس اليوناني الذين يؤلّفون ملّة الروم. وأصبح المطارنة الروم الرؤساء المحليين لرعايا أبرشياتهم والممثلين لهم لدى السلطات العثمانية. ونالوا بعض الامتيازات في حقلي القضاء، الجزائي والمدني.

وبعدما استسلم المماليك في مصر، خلع السلطان سليم الأول، آخر خليفة عباسي، مقيم في القاهرة، تحت حماية سلطان المماليك، واتخذ لقب خليفة رسول الله وأمير المؤمنين. فأدت له الطاعة المدن الإسلامية المقدسة:

مكة والمدينة. وأصبحت بلدان الشرق الأوسط والأدنى، منذ ذاك الحين، ولايات عثمانية إقليمية تابعة للحكومة العثمانية المركزية، في عاصمة السلطنة: القسطنطينية.

24 - الوضع السياسي والاجتماعي والاقتصادي للمسيحيين في ظل سلطنة بني عثمان

بالنسبة للمسيحيين في البلدان العربية والإسلامية في آسيا وأفريقيا الشمالية والتي أصبحت تحت حكم العثمانيين، لم يشكّل هذا الضم حدثاً كبيراً ذا أهمية. لقد تركت السلطات الجديدة في كل مكان بعضاً من النظم السياسية والاقتصادية المعمول بها سابقاً، وبذلك بقي الوضع على ما هو عليه بدون تغيير. إنما صراعات الولاة أنفسهم والنزاعات فيما بينهم وأطماعهم المادية، كانت تؤدي، من وقت إلى آخر، إلى تفاقم الأوضاع في الولايات وبين الرعايا ويدفع النصارى الثمن الغالي من أرواحهم وأموالهم وممتلكاتهم.

ففي الديار المصرية، انتهى الأمر بالمماليك المغلوبين على أمرهم، إلى تولّي السلطات ومراقبة الإدارات على الرغم من تقهقر الوضع الاقتصادي والاجتماعي[1]. وفي بلاد الشام، ترك العثمانيون الحكم في أيدي الأُسَر المحلية ذات النفوذ، مع كافة الامتيازات القديمة التي كانت تتمتع بها. ومن هذه الأُسَر كانت أسرة بني معن الأقوى، فأميرها فخر الدين الأول، هو الذي ترأس الأمراء وتكلم باسمهم «في حضرة السلطان سليم الأول عام 1516»، الذي ميّزه عن غيره ولقّبه بسلطان البر وحكم أسرته على جميع الأسر فاشتد نفوذهم.

ففي عهد الأمير فخر الدين الثاني المعني (1598 - 1635)، تمتّع المسيحيون بحماية كبيرة جعلتهم في مأمن من جور العثمانيين. فقد كان كبير

---

(1) المسيحية عبر تاريخها في المشرق، م.س.، ص 605.

مستشاريه وقائد جيشه من الموارنة الذين نشأ بينهم، لكن خلفاءه لم يتمتعوا بسطوته ولا باستقلاليته إزاء الحكم التركي[1]. في حين أن عدد المسيحيين في سائر أقطار الشرق الأوسط وأفريقيا الشمالية لم يكن ذا شأن، كما في الحبشة وأرمينيا. ففي الحبشة استطاع المسيحيون الحفاظ على هويتهم واستقلالهم، لكن اعتباراً من عام 1525 وحتى عام 1531، استطاع المسلمون، بقيادة أحمد بن إبراهيم الغازي الملقّب بالكبير (الغوشر) القيام بعدد من الغزوات الكبرى للبلاد وقتل عدد كبير من السكان المسيحيين. وفي عام 1543، نجح البرتغاليون في التصدي للمسلمين والقضاء على أميرهم الكبير.

أما أرمينيا المسيحية فكانت خلال قرنين من الزمن عرضة لمعارك عسكرية ضارية بين العثمانيين السنّة، الذين كانوا يحتلّون القسم الغربي من البلاد، والفرس الصفويين الشيعة، الذين استلموا الحكم السنة 1505 واستقلوا بالمقاطعات الشرقية الشمالية. فكانت أرمينيا العربية عرضة للجوع والمجازر والتهجير وعدم الاستقرار، مما أدى بالمسيحيين إلى الهجرة. وقد نظّم الشاه عباس الأول (1587 - 1629) في أرمينيا الشرقية، عملية نقل لخمسين ألف أرمني باتجاه إيران[2].

إن تفاقم الوضع الاقتصادي أدّى إلى المزيد من التدهور في الحياة الدينية والأخلاقية والروحية. واعتناق الإسلام أضعف الطوائف المسيحية، فتضاءل عدد الكهنة والرهبان، وأقفلت الأديار وأدرك الخراب العديد من الكنائس. وتذكر المدوّنات عن أحداث جرت في مصر في العام 1518 - 1519، تدلّ على أن الأمور لم تتغير كثيراً بالنسبة للمسيحيين، رغم أن

(1) Boulos, les Peuples et les civilizations du Proche Orient, op. cit., p5.
- P.Dib, Histoire de l'Eglise Maronite, Beyrouth, 1962.

(2) المسيحية عبر تاريخها، م.س.، ص 606.

هؤلاء قد رأوا في ذلك الفتح ما يمكن أن يكون إنقاذاً لهم من ظلم المماليك. فقد قبض جنود الانكشارية على بعض المسيحيين بتهمة أنهم قد شربوا الخمرة ووجهوا لهم الشتائم والسباب. وقام هؤلاء الجنود بقتل جميع هؤلاء المسيحيين. ثم اجتمع السواد الأعظم من العوام وأخذوا رمم النصارى وأطلقوا فيها النار «وأخذوا السقائف التي تقع على الدكاكين ووضعوها عليهم وأشعلوها بالنار، فاحترقوا وصاروا كالرماد»[1]. وقد جرت أحداث مماثلة بعد أربع سنوات (1521)، فاضطر بعض المحكومين إلى أن يغيروا ديانتهم لينجوا من الموت[2].

لقد وجد الأقباط أنفسهم مهملين متروكين مستفردين في المئة سنة الأولى من العهد العثماني. ذلك أن هؤلاء الأتراك قد جعلوا البطريرك القسطنطيني مرجعية مسيحية أولى في الشرق. ثم إن علاقات العثمانيين الدولية فرضت عليهم مسايرة روما التي كانت تحافظ على مصالح الكنائس الكاثوليكية في الشرق. وكان الأقباط خارج المرجعيتين.

ويرى باحثون محدثون[3] أنه في هذه المرحلة، لم يعرف أي دور إداري أو مالي يذكر للأقباط في مصر. فلما طبّقت الدولة العثمانية في مصر نظام «الملة» «تراجع الأقباط، بمقتضاه، كطائفة دينية أو ملة أمام تطور وتوسع طوائف أخرى أو ملل كاليهودية والكاثوليكية التي تعاملت مع مفهوم الملة على أنها أقلية، بشكل يخدم أهداف التوسع الأوروبي في السلطنة العثمانية وذلك منذ أواخر القرن السابع عشر، ومع ما يعرف بالمسألة الشرقية.

كانت الحياة الفكرية والروحية، في الديار المصرية آنذاك، في شبه انحطاط تام، على مثال انحطاط حال

(1) ابن إياس، تاريخ مصر، طبعة بولاق، 1311، ج3، ص 268 - 269.

(2) المرجع السابق، ص 315.

(3) زخور. د، فرج توفيق، قصة الأقباط، جروس برس، طرابلس لبنان، 1993، ص 62، 63.

البلاد الاقتصادي والثقافي، واستمرّ عدد مسيحييها طيلة ثلاثة قرون من الحكم العثماني بالتناقض بشكل بارز[1]. «وترسم خطب ملاتيوس بيغاس (1590 - 1601) وكيرلّس لوكاريس (1601 - 1621) هذا الوضع الاقتصادي والديني بألوان أشد ما تكون قتامة. فلما لم يتمكّن بلاتيوس بيغاس من تأدية المبلغ الباهظ الذي طلبه والي مصر العثماني في لقاء تنصيبه (1590)، عمد الجند الانكشاري إلى نهب الكاتدرائية الوحيدة للأقباط الأرثوذكس في الإسكندرية. أما يواكيم ياني فقد سيم بطريركاً في دمشق سنة 1503، لأنه لم يكن يوجد في مصر العدد الكافي من الأساقفة لسيامة بطريرك. وحتى نهاية القرن السابع عشر كان البطريرك هو الأسقف الوحيد لبطريركية الإسكندرية الأرثوذكسية». وبين 1530 و1540 لم يكن يوجد في مصر سوى سبع كنائس أرثوذكسية تُمارس فيها العبادة: واحدة في الإسكندرية وأخرى في دمياط وثالثة في ريتو ورابعة في القاهرة[2]. ويظهر أن دير القديس مكاريوس هو الوحيد الذي بقي ممسكاً بشعلة الحياة الرهبانية مضاءة[3].

والجدير ذكره أن الحدث التاريخي البارز في تاريخ الأقباط إبان العصر العثماني هذا، هو محاولة المونوفيزيين الأقباط اعتناق المذهب الكاثوليكي. وكانت قد جرت محاولة من قبل الكنيسة الكاثوليكية لمصالحة الأقباط المونوفيزيين والكاثوليك في العهد الأيوبي، ولكنها باءت بالفشل.

في العام 1560، زار روما قسيسان قبطيان يحملان عريضة تشهد برغبة رؤساء الأقباط وشعبهم بأسره في العودة إلى حضن الكنيسة الكاثوليكية والخضوع لسلطة البابا نائب المسيح. استجاب البابا بيوس الرابع لطلب الأقباط، وسارع إلى إرسال راهبين

(1) لا يتجاوز العدد بضع مئات من الآلاف فقط.

(2) المسيحية عبر تاريخها، م.س.، ص 607.

(3) المرجع نفسه.

يسوعيين إلى مصر ليحادثا البطريرك القبطي في الموضوع، لكنهما لم يتوصّلا إلى نتيجة. وبعد مضي 20 سنة (1582)، عاود هؤلاء مسعاهم لدى الكرسي الرسولي الذي استجاب لهذا المسعى، وكاد أن يتم الاتفاق لو لم يمت البطريرك فجأة. ويزعم الكاثوليك أنه مات مسموماً. على أي حال، فإن المجلس (مندوب البابا والأساقفة الأقباط) انفضّ بعد وفاة البطريرك وألقى الوالي العثماني القبض على مندوب البابا، الأب إليانو، باعتباره جاسوساً أجنبياً. وقد اضطر البابا غريغوريوس الثالث عشر، إلى دفع فدية قدرها خمسة آلاف دينار لإطلاق سراح ممثله وتمكينه من العودة إلى بلاده[1].

وفي العام 1597، أوفد البطريرك القبطي جبرائيل الثامن، مبعوثين إلى روما يحملان قراراً بالإيمان، عليه توقيعه، وقد ذكر في هذا الإقرار أنه «يؤمن إيماناً ثابتاً بقوانين مجمع نيقية (325) وبقانون مجمع القسطنطينية، ويعترف بأن أحداً من الذين خارج الكنيسة الكاثوليكية لن يستطيع أن ينال الحياة الأبدية». وبينما كان المندوبان القبطيان في روما، بعث إليهما البطريرك القبطي رسالة تقول[2]:

«لا تدعوا أحداً يخدمكم من المترجمين إلا من كتّاب جبل لبنان الموارنة. فإنهم من أقاربنا ويعرفون بلساننا. ثم إنكم تُقبِّلوا لنا أيادي السيد البابا وتسألوا من تفضلاته وإحسانه بأن ينعم علينا ويتصدق في كل سنة بترتيب جامكية (عطية) فإننا في غاية الضيق والشدة. وما تحتاجه كنائسنا وأديرتنا والفقراء والمساكين والأرامل والأيتام الذين بالسجون والحديد لسبب الجوالي وغيرهم... وأنتم يا أولادي تعرفون ذلك أكثر مني، ومن عملكم (أن) تعرّفوا السيد البابا عن ذلك. فإن السيد المسيح أعطاه السلطة على سائر

(1) موسوعة عالم الأديان، نوبلس، م.س.، ج21، ص 109.

(2) مماثل، ص 110.

المسيحيين، وهو أبوهم وأبونا نحن أيضاً، وحيث ما هو أبونا، فيساعدنا في ضيقنا الذي نحن فيه».

وقد أرسل البابا إكليماندوس الثامن (1592 - 1605) بعض المساعدات إليهم[1].

لا شك في أن هذه الرسالة التي بعث بها بطريرك الأقباط إلى روما في نهاية القرن السادس عشر، تكشف عن أن وضع الأقباط في مصر كان في تلك الحقبة صعباً للغاية. ولا عجب في أن يحاول المسؤول الأول عن الطائفة القبطية أن يستنجد بروما من أجل حاجات أبناء كنيسته، وإن كان ثمن ذلك الرضوخ لسلطة البابا. على أي حال، فإن روما قد استجابت لذلك الطلب، واعتبرت الأقباط كاثوليكا، كما بقي الأقباط في حال اتحاد مع روما زهاء قرن ونصف. على أنه مثلما دعت الحاجة الأقباط إلى الاتحاد بروما، فاتحدوا، فهم سوف ينفصلون عنها متى دعتهم الحاجة إلى اكتساب تأييد الباشوات الأتراك، وهذا ما حصل فعلاً[2].

إن التناقص السكاني في الكنيسة القبطية زاد من حدة الوضع السيء. ففي نهاية القرن الثامن عشر لم تكن الكنيسة هذه تعد أكثر من مئتي ألف نسمة، أي ما يعادل تقريباً بين 10٪ و12٪ من مجموع سكان مصر آنذاك. ولم تكن تملك سوى عشر أسقفيات معظمها في مصر العليا، وحوالي مئة كنيسة فقط ومئة من الرهبان كانوا موزعين على سبعة أديرة. ربما هذه الكنيسة كانت كنيسة ريفية تتألف بنوع خاص من فلاحين فقراء مدقعين، فقد تغاضى عنها الحكم العثماني لأنه لم يعد لها أي شيء يذكر. فاستطاعت فيما

---

(1) رباط الأب أنطوان، البابا إكليماندوس الثامن وبطريرك الأقباط جبرائيل، مجموعة مجلة المشرق (1907 - 1914).

(2) RENAUDOT ABBÉ E., HISTORIA PATRIARCHARUM JACOBITARUM (PARIS, 1713) pp. 601 - 602.

بعد قلة من الموظفين الإداريين وجباة الضرائب ووكلاء الأعمال لدى بعض الأسر الإسلامية الكبرى، من أن يكونوا نواة طبقة البرزجوازية القبطية[1].

أما في فلسطين، فلم يكن عدد المسيحيين التابعين لبطريركية القدس الأرثوذكسية يتجاوز عدد مسيحيي بطريركية الإسكندرية، إلا أنها تمكّنت من المحافظة على عدد من أسقفياتها. وإن رهبان دير أخوة القبر المقدس ودير مار سابا، فقد أدوا دوراً مركزياً في الحياة الدينية والثقافية في المنطقة. لكن اهتمام البطريركية قد تركز قبل كل شيء على مشكلة الإشراف على الأماكن المقدسة، إذ إن منافسة حادة نشبت مع الأرمن، وخصوصاً مع الفرنسيسكان المدعومين مادياً وسياسياً من فرنسا، مما ناسب بالطبع الحكم العثماني وشجعه كي يستفيد من الصراع بين الطوائف. إن سياسة الأتراك طيلة حكمهم في المشرق كان في أساسها مبدأ «فرّق تسدْ». لقد خاض البطاركة في هذه المسألة معركة صعبة أنفقوا في سبيلها المبالغ الطائلة رشوة للولاة العثمانيين وغير ذلك. كما شكل الوضع القانوني لدير سيناء، مشكلة أخرى كان على البطريركية حلها. ففي سنة 1529، تخلت بطريركية الإسكندرية رسمياً عن الادعاء بالوصاية على الدير هناك، فانتقلت الوصاية إلى بطريركية القدس. ففي سنة 1557، انعقد مجمع في القاهرة شارك فيه بطاركة المشرق الأربعة: الإسكندرية، أنطاكية، القدس، القسطنطينية، وقرروا أن يكون دير القديسة كاترينا، ديراً مستقلاً للرهبان المتوحدين، يديره قمص قبطي، يتبع لبطريركية القدس.

كان يوجد في هذا الدير في عام 1512، حوالي أربعين راهباً. وفي العام 1620 ثلاثة فقط. وفي العام 1701، خمسين راهباً، في حين أن دير مار سابا كان يضم في الفترة عينها ما بين خمسة عشر إلى خمسين راهباً. وقد قتل العثمانيون في السنة 1566، عدداً

(1) المسحية عبر تاريخها، م.س.، ص 607.

منهم دون أي سبب معروف.

أما في البطريركية الأنطاكية (أنطاكية)، فقد وجد العدد الأكبر من المسيحيين الناطقين باللغة العربية. لكن عددهم أخذ بالتناقص مع مرور الزمن، إما لاعتناق البعض منهم الدين الإسلامي وإما لانتقالهم إلى المذهب الكاثوليكي، مما أحدث نقصاً بيناً في عددهم. وفي العام 1658، لم يبق إلا حوالي عشرة أديرة فقط تؤمن استمرار الحياة الدينية في المنطقة، إلا أن التحصيل الثقافي ظل منوطاً بدير مار سابا، ما لم يُسعَ في طلبه لدى الموارنة أو المرسلين الكاثوليك[1].

ففي بلاد الشام كان الموارنة وكنيستهم، هي الطائفة المسيحية الأكثر تماسكاً والأكثر تنظيماً والأكثر نشاطاً. وقد استفادت كثيراً من جراء احتكاكها المتواصل بروما، إضافة إلى دعم فرنسا لها منذ توقيع الامتيازات الأولى العام 1535. فعلاقاتها الوثقى والمتواصلة بروما أمّنت لها الدعم الثقافي والروحي الذي حُرمت منه سائر الكنائس الشرقية. فالبابا كان يرسل بانتظام زائريه الرسوليين، كما جاهر البطاركة الموارنة البابا بإيمانهم الكاثوليكي، ملتمسين منه درع التثبيت (الباليوم). وفي هذه الحقبة تولى ثمانية بطاركة مقاليد الكنيسة المارونية. وتجدر الإشارة إلى أنه، من بين جميع رؤساء الطوائف المسيحية، وحدهم بطاركة الموارنة لم يلتمسوا فرمان تنصيبهم من الدولة العثمانية[2].

في لبنان أصبح الموارنة، بعد تنظيم البلدان والأقطار العربية وفقاً للنظم العثمانية، تابعين لولاة طرابلس والعثمانيين[3]، كما كانوا تابعين لنوابها المماليك من ذي قبل[4]. لقد كانت

(1) المسيحية عبر تاريخها، م.س.، ص 608.

(2) Histoire de l'Eglise maronite, op. cit., p.

(3) الموارنة في جبة بشري وبلاد جبيل والبترون وجبة المنيطرة.

(4) الصليبي، منطلق تاريخ لبنان، م.س.، ص 33.

هذه البقعة المارونية تنعم بالهدوء والطمأنينة في ظل رؤسائها المقدّمين الموارنة. وذكر باحثون أن مقدّم بشري الماروني كان يُعتبر المقدم الرئيسي لسائر المقدمين الذين كانوا يحكمون المناطق الممتدة من نهر بيروت جنوباً إلى حدود عكار شمالاً، إلى بلاد بعلبك شرقاً[1].

في بداية الفتح العثماني، كان المقدم كمال الدين بن عبد الوهاب بن عجرمة من أيطو قرب إهدن، أول مقدم تولى الحكم في بشري. وقد قتله مقدم بشري يوحنا بن يوسف السنة 1547... ثم تولّى بعده المقدم «عاشنينا» وقتله المسلمون في طرابلس عام 1575. وفي هذه السنة سار المسلمون إلى افتتاح قبرص وتولّى المقدمية ابنا شقيق عاشنينا: عساف بن موسى وأخوه داغر إلى عام 1577، وتولّى ضاهر الحصروني، الشدياق إلى عام 1594، ثم ابنه رعد إلى عام 1612. ثم مقلد إلى عام 1614، ثم ظهر أبو نادر الخازن في كسروان وولد له أولاد نالوا الحظوة عند الأمراء المعنيين وانتشرت أخبارهم شرقاً وغرباً[2]. وهنا ابتدأ عهد المدبرين الموارنة مع نشوء الإمارة المعنية اللبنانية، الموحدة، وقد أصبح بذلك المدبر ممثلاً للمجموعة المارونية في الإمارة، وبالتالي لسائر المسيحيين فيها، وبذلك أيضاً انتهى عهد المقدمين الموارنة، مع العلم أن المدبر كان بمثابة المرتبة الثانية بعد الأمير في بنائية الحكم.

لقد اختار الأمير منصور العسافي، التابع للعثمانيين كحاكم على كسروان وتوابعها، مدبريه الموارنة من آل حبيش، الذي انفتح على المسلمين من جهة وسعى لحماية مصالح الموارنة من جهة ثانية. فكانوا يحمون الموارنة من جور حكام طرابلس المسلمين، بما لهم من نفوذ لدى الأمراء.

(1) الخوري فرنسيس رحمة، تاريخ بشري، مطبعة صفدي للتجارة، 1956، ج1، ص 243 ـ 245.

(2) مفرج، طوني، صانعو التاريخ اللبناني، في الموسوعة اللبنانية، دار نوبليس، بيروت، 2000، ج7، ص 91، 197.

في الإطار نفسه، لم يجد الأمير فخر الدين المعني الثاني أفضل من الرجلين اللذين ائتمنا على حياته وهو حدث، ليجعلهما أقرب الموارنة إليه، فمنح سنة 1598 لقب المشيخة لأبي صقر الخازن وشقيقه أبي صافي رباح، واتخذ الأول مدبراً وجعل الثاني قائداً لفرقة المشاة. وبعد العام 1618، جعل فخر الدين مشايخ آل الخازن وكلاء على بلاد جبيل والبترون وبشري (الجبة). وكان هؤلاء قد تسلموا حكم كسروان في العام 1615، من شقيق الأمير فخر الدين، الأمير يونس. فسهر هؤلاء على تعزيز شأن الموارنة وخدمة مصالح بني قومهم المادية والمعنوية بشتى الوسائل، وبكل ما كان لهم من نفوذ لدى الأمراء المعنيين.

«ففي السنة 1622 كان جبل لبنان في أمان واطمئنان بسبب الأمير فخر الدين الثاني.. ولأجل ذلك اعتمد الموارنة على خدمة الله وحياة النسك وعلى بنيان الكنائس والمدارس. وقدم أناس من بلاد الفرنج، كثيرون من الأخوة الكبوشيين وأناس حبساء وأخذوا السكن في جبة بشري...».

وسوف تستمر هذه الحال وهذه المدبرية المارونية إلى جانب الأمراء المعنيين وخلفائهم الأمراء الشهابيين من دون انقطاع، حتى تنصُّر الشهابيين وصيرورة الأمير نفسه مارونياً، كما هي الحال في عهدي الأمير يوسف شهاب، ربما والأمير بشير الثاني مؤكداً.

لقد تولّى، في خلال تلك الحقبات، شخصيات من عائلات سياسية مارونية مسؤوليات رسمية، كبرى، منهم: الحاج كيوان الماروني، من دير القمر، الذي تعاطى، إضافة إلى أعمال المدبرية، المفاوضات الدبلوماسية والدولية وتأسيس جيش إمارة فخر الدين وتنظيمه على أسس حديثة. واهتم الخازنيون بتمتين العلاقات المتبادلة بين الأمير والبطريرك الماروني، وتبوأوا المراكز القنصلية والمعاهدات الدولية وقاد بعضهم جيش الإمارة في أكثر الأحيان، وشكلت المدبرية في واجهة التحالف المسيحي - المعني (السني)، وتسلم بارزون من

آل الشدياق وآل الدحداح وآل الضاهر وآل إده وآل أبي صعب وآل باخوس وسواهم من الموارنة أرفع المناصب في تدبير شؤون الإمارة على مدى تاريخها.

والجدير ذكره، وهذه حادثة لا بد من تعميمها وهي أن البطريرك الماروني موسى سعادة العكاري أرسل في عام 1550 الخوري أنطون الحصرون، ابن الحاج فرحات إلى حلب لمقابلة السلطان العثماني الذي كان فيها يومذاك[1]. وكان الخوري المذكور يجيد التكلم باللغة التركية، فأعجب السلطان بفصاحته وقوة برهانه، وأنفذ أمراً همايونياً إلى قاضي طرابلس الشرعي كي لا يسمح لأحد بأن يتعرض للبطريرك الماروني بشيء، وأن يصير السهر على أن تبقى حقوق الكنيسة المارونيبة مرعية بنوع خاص، وأن يعاقب بشدة كل من يتجاسر على مخالفة هذا الأمر. وعليه، بقي البطريرك الماروني معفى من طلب الفرمان السلطاني[2]. وقد عمل هذا البطريرك كثيراً لطائفته فقد فاوض رئيس الرهبنة الفرنسيسكانية بشأن إرسالها علماء من رهبانيته لتدريس العلوم الفلسفية واللاهوت في مدارس الإمارة. وفضّ خلافاً بين الموارنة والأقباط حول كنيسة مار جرجس في القدس. وفي عهده انتقلت عائلات مارونية عديدة إلى كسروان والشوف وجبيل والمتن، فانتشر العمران في جبل لبنان وعمّت البحبوحة.

ما عدا الموارنة كان المسيحيون يلتمسون فرمان تنصيب بطاركتهم من السلطنة العثمانية. في حين أن الكنيسة

(1) السلطان سليمان القانوني: عاشر السلاطين العثمانيين وأعزّهم (1520 - 1566) لقّبه الأتراك بالقانوني والإفرنج بالعظيم، قاد بذاته 13 حملة عسكرية في أوروبا وآسيا، دوّن القوانين والشرائع. بلغت السلطنة بعهده أوج مجدها، فازدهرت الآداب والفنون، أوثق عرى الصداقة بين الباب العالي ودول أوروبا ومنح فرنسوا الأول ملك فرنسا عام 1535، الامتيازات الأجنبية.

(2) داغر، بطاركة الموارنة، م.س.، ص 45 - 46.

الأرمنية قد واجهت مشكلة إدارية - كنسية فريدة. ففي عام 1441، تم نقل كرسي كاثوليكوس أرمينيا من كيليكيا إلى اتشميازين في بلاد فارس، والأسقف الذي أُنتخب آنذاك اتخذ لنفسه لقب «كاثوليكوس كل أرمينيا» وأبقى على كرسي كيليكيا قائماً في سيس، مع تقليص الصلاحيات، وذلك حتى تهجير الأرمن السنة 1921.

لكن العثمانيين أنشأوا بدورهم البطريركية، الأرمنية في القسطنطينية، وراح بطريركها يمارس صلاحياته على كافة المسيحيين غير الخلقيدونيين في السلطنة، وكان ذلك في العام 1540. وقد أدت هذه المؤسسة دوراً بارزاً رفيع المستوى، ذاك أن الأرمن كانوا في الواقع كثراً في العاصمة، يشكلون فيها طبقة التجار وكبار الممولين، على غرار طبقة الأروام من سكان الفنار[1]. وهكذا غدت القسطنطينية موئلاً أرمنياً هو الأهم في القرن السابع عشر، وقد كانوا فيما بعد جماعات ثرية في كافة أراضي السلطنة وفي الدولة الفارسية.

25 - العلاقات بين الأرثوذكسية والتيارات الأيديولوجية

عاش المسيحيون وكنائسهم لمدة تسعة قرون، حياة أهل الذمة[2]. إنما بقي اللاهوت الأرثوذكسي، المتعلق بالسلطة المدنية وبعلاقتها مع الكنيسة، مصاناً. إلا أن هذا الوضع تبدل بعد سقوط القسطنطينية (1453) وانهيار الإمبراطورية البيزنطية التام.

وقبل زوال هذه الإمبراطورية، سرى تيار فكري قوي داخل العالم الأرثوذكسي يقول بأن الخضوع للأتراك كحل سياسي هو أجدى بكثير من الخضوع لبابا روما. لكن بعد سقوط القسطنطينية، ورؤية الامتيازات الممنوحة للبطريرك والسياسة الدينية التي اتبعها الأتراك حيال رعاياهم

(1) هي من أحياء اسطنبول، قرب بطريركية الروم.

(2) A. Fattal, le statut légal des non-Musulmans au pays d'Islam, Beyrouth, 1958.

المسيحيين، تحولت النظرة اللاهوتية القائلة بمبدأ «إيمان واحد وإمبراطورية واحدة وإمبراطور واحد» إلى عقيدة لاهوتية ترضى بالتعددية الدينية داخل الدولة الواحدة. وبإذعان الكنيسة عن رضى لحكم غير مسيحي. وقد بُرّر ذلك على أنه يدخل ضمن التدبير الإلهي لصون وحدة الإيمان القويم (الأرثوذكسي).

والجدير ذكره أن مؤرخي الأرثوذكسية لهذه الحقبة، يصفون السلطنة العثمانية بأنها تواصل طبيعي للإمبراطورية البيزنطية ويصورون السلاطين كحلفاء لأباطرة بيزنطية، المسيحيين. وقد سموا السلطان العثماني «السلطان الخالد الذكر».

وبانضمام البطريركيات الشرقية الأرثوذكسية الثلاث العام 1517 إلى السلطنة العثمانية، تمكّنت هذه البطريركيات سريعاً من إقامة علاقات مباشرة مع بطريركية القسطنطينية، مستقبلة اللاهوت الجديد حول السلطة. وقد تكيف الجميع مع هذا الواقع الجديد وعرفوا كيف يستحصلون منه على أكبر قدر من المكاسب. وانخرطوا في اللعبة السياسية الدولية، وعملوا لمصلحة السلطنة[1]. إن موقف الكنيسة الأرثوذكسية هذا مع السلطة العثمانية لا يتناقض مع علاقة البطريركيات الأربع المشرقية بالإمبراطورية الروسية الأرثوذكسية، ولا مع رجاء شعب مغلوب على أمره وتطلعاته الرؤيوية نحو الدور الذي على القيصر الروسي أن يلعبه كمنقذ. مع العلم أن اللاهوت الروسي قد اعتبر، طيلة السنوات العشر التي تلت سقوط القسطنطينية، إن ما جرى للكنيسة اليونانية والإمبراطورية البيزنطية ليس سوى عقاب من الله لأنهما إرادتا إخضاع الأرثوذكسية لأطماع بابا روما وهرطقته.

ويجدر الذكر أن الامتيازات التي منحها محمد الثاني الفاتح، للبطريرك

(1) بالأخص البطاركة الكبار: ملايتوس بيغاس. كيرلس لوكاريس، دوزيتارس وخريسنتوس نوتاراس.

سكولاريوس، بطريرك القسطنطينية (1453) رفعت هذا الأخير إلى مقام رئيس طائفة «ملّي باشي» على كافة أرثوذكس السلطنة الجديدة، وجعلته المسؤول الوحيد عن أفعال اتباعه من المسيحيين أمام السلطة السياسية الإسلامية. فوجب على الكنيسة أن تتدبر، إلى جانب الشؤون الدينية والثقافية والروحية، كافة شؤون المسيحيين المنوطة بأحوالهم الشخصية والحقوق العائلية. فقد كان كل بطريرك يتلقى عند تنصيبه براءة تحدد سلطاته الممنوحة له مدى الحياة، وتحدد أيضاً ما تتمتع به طائفته من حقوق مدنية.

لقد كان بطريرك القسطنطينية دوماً عرضة لتعسف السلطات العثمانية واستبدادها وجشعها وللضغوطات التي كانت تمارسها عليه القوة الغربية، ولصالح الفئات الأرثوذكسية الضاغطة وأطماعها. فقد عرف خلال الفترة الممتدة من 1517 إلى 1650، تغيير خمسة وثلاثين بطريركاً، مقابل خمسة في الإسكندرية و 12 في أنطاكية و 8 في القدس والكنيستين المارونية والقبطية[1].

كانت هللينية الكنيسة الأرثوذكسية إحدى النتائج الواضحة لخضوع سائر البطاركة لبطريرك القسطنطينية. فالطقوس والرتب الدينية والتعبير عن الفكر اللاهوتي الأرثوذكسي والتعليم الديني والتنشئة الدينية، كانت جميعها تتم باللغة اليونانية. الأمر الذي أدّى إلى ردة فعل عنيفة في البلقان، فأنشأوا بطريركية بيتش الصربية (1557 - 1766). أما في الشرق، فإن كنيسة أنطاكية، قاومت بعناد الهللينية الشاملة، لقد ظلت العربية هي اللغة الطقسية وظل الأحبار والأساقفة يُختارون من بين السكان المحليين. لذا كان يوجد في بعض الأحيان بطريركان، الأول منتخب في القسطنطينية والآخر من كنيسته المحلية، حتى كان عام 1724، فانفصل نهائياً قسم من كنيسة أنطاكية عن القسطنطينية ليتحد بروما.

(1) المسيحية عبر تاريخها، م.س.، ص614.

26 - كنيسة روما والكنائس الشرقية

تبتدئ هذه الحقبة في الغرب مع بداية إصلاح لوثر (1517) وتنتهي مع نهاية حرب الثلاثين سنة (1618 - 1648). والحال أن الحياة الدينية، والتطور الثقافي لدى الطوائف المسيحية الشرقية، سيرتبطان مباشرة بالتاريخ الديني للغرب المسيحي، وذلك بسبب ارتباط مصالح الكنيسة الكاثوليكية، الرومانية أولاً والكنائس البروتستانتية لاحقاً، بالطوائف المسيحية الشرقية. بمعنى آخر، فإن مصير الكنائس الشرقية، غدا في بعض الحالات متصلاً اتصالاً مباشراً ووثيقاً بالعمل الذي يقوم به مرسلو الكنائس الغربية على أرض الشرق.

إن وحدة الكنيسة كانت الشغل الشاغل للبابوية بالنسبة لمسيحيي الشرق. فالامتيازات التي وقّعت بين البلدان الغربية والباب العالي، بدءاً من العام 1535، والقرارات والأوامر التي أصدرها المجمع التريدنتيني (1545 - 1563)، وقوة شخصية بعض البابوات، وإنشاء الرهبانية اليسوعية (1540)، وتأسيس مجمع نشر الإيمان المقدس (1622)، ليست كلها سوى بعض الدلائل المؤكدة والواضحة جداً على المواصلة المستمرة في سياسة روما الوحدوية.

لقد أرسلت روما العديد من البعثات والقصّاد والمرسلين الرسوليين إلى الشرق، كما أنها أنشأت مدارس في روما مخصصة للطلاب المشرقيين، وأقامت العديد من المدارس والمستوصفات في مختلف أنحاء السلطنة، واستعمال لغة الشعوب المسيحية فيها في التعليم والتبشير. وتأليف الكتب الدينية الكاثوليكية، وترجمتها إلى هذه اللغات، وطبعها وتوزيعها على نطاق واسع واستعمال أساليب متعددة، لا تمت إلى هذه الأمور بصلة، كالدسائس والتدخل في شؤون الكنائس الداخلية واستخدام النفوذ الأجنبي أو العثماني، بغية إحداث انقلاب في الأوضاع يكون لغير مصلحة الأحبار المشاكسين.

كل هذه الأمور أتت مفيدة

للطوائف المسيحية في السلطنة، في إعادة إذكاء الإيمان المسيحي لدى المسيحيين الشرقيين، ورفع المستوى الأخلاقي والروحي عندهم، إلى جانب التطور الثقافي.

في السنة 1577، أنشئت في روما مدرسة القديس اثناثيوس وفي السنة 1650، أسس اليسوعيون في دمشق مدرسة كانت تعد 70 طالباً جلهم على المذهب الأرثوذكسي، يتلقون فيها نهار السبت التعليم الديني الكاثوليكي.

استقرّ اليسوعيون في سنة 1609 في القسطنطينية وفي حلب سنة 1627 وفي دمشق 1645، وفي العديد من بحر إيجه. وفي روما أوكلت إليهم إدارة المدرسة اليونانية والمدرسة القبطية، ومجمع انتشار الإيمان ومطبعته. وقد دفعت الكنيسة الأرثوذكسية ضد الأباء اليسوعيين في كافة البلدان والمناطق وحاربتها.

في السنة 1520 وصلت بعثة برتغالية إلى الحبشة مؤلفة من سبعة أشخاص بينهم الكاهن فرنسيسكو الفاريس الذي كتب أول قصة ألّفها أوروبي عن بلاد الحبشة. كما أن انتصار البرتغاليين على مسلمي حران فيما بعد (1543)، ترافق مع ازدياد عدد المرسلين الذين أخذوا على عاتقهم «ليتنة» الطقوس وجعل الطوائف المحلية تحت سلطة روما. وفي السنة 1622، نجح اليسوعيون في حمل إمبراطور الحبشة سوسانيوس على التنصر واستحصلوا من البابا على تعيين «بطريرك لاتيني» على الحبشة، وبعد عشر سنوات، كانت ردة الفعل عنيفة، إذ إن الإمبراطور فاسيلادس (1632 - 1667) أمر بقتل وطرد كل المرسلين وقطع العلاقات مع روما. وفي عهد هذا الإمبراطور طبعت بعض المؤلفات المختصرة في كيفية ممارسة الأسرار الإلهية. كما طبع مؤلف أبي الفضائل بن الإعصار الشهير في القانون الكنسي (Fetha Nagast). وفي السنة 1583، كتب الأنباسالك دائرة المعارف القبطية الكبرى في اللاهوت الأدبي والرهباني، ناقلاً إياها من العربية.

وهكذا نجحت الكنيسة الحبشية

في أن تؤكد هويتها بفضل نشاط رؤسائها السياسيين والدينيين والإبانة عن حياة دينية مهمة وإنتاج ثقافي لا يمكن الاستهانة به[1].

وفي مصر تميّزت هذه الحقبة بمحاولات متكررة للوحدة بين الكنيستين القبطية والرومانية، لكنها باءت بالفشل. أما الأقباط الكاثوليك فكان عددهم لا يتجاوز الـ 4300 عام 1653، ومعظمهم ينتمي إلى الطبقات المترفة والنخبة المثقفة، وقد عيّنت لهم روما نائباً رسولياً في القاهرة لتدبير شؤونهم. وفي العام 1602، كان قد تأسس في روما، معهد للأقباط، وقد رفع هذا المعهد، إضافة إلى العمل التعليمي الذي قام به الفرنسيسكان والكبوشيون في مصر، المستوى الثقافي للطبقات الغنية. والجدير ذكره أنه من سنة 1603 إلى ستة 1630، كان أحد الأقباط، ويدعى يوسف أبو دغان، يعلم في جامعات أكسفورد. وأنفرس ولوفان وميونخ وفرسوفيا وبراغ وفينا. وكتابه «تاريخ اليعقوبيّين الأقباط» باللغة اللاتينية قد طبع ثلاث مرات في القرن 18، وبالإنكليزية سنة 1693[2].

ويعود الفضل، في طبع بعض الكتب، إلى الطائفة الأرمنية المقيمة في إيطاليا. فقد عمد رجل أرمني يدعى يعقوب ميغابارت إلى طبع الكتب في البندقية. وهناك أرمني آخر يدعى أبجر شرع في طبع «سفر المزامير» سنة 1565، ثم أنشأ مطبعة في اسطنبول، كانت أولى المطابع في الشرق الأوسط، طبع فيها خلال سنتين (1567 - 1569) خمسة مصنفات. أما في بلاد فارس فقد أنشأ اللاهوتي خاتشادور القيصري سنة 1638، في دير المخلص في جلفة الجديدة، أول مطبعة أرمنية، كانت الأولى في تلك البلاد.

أما الاتصالات بين روما والكنيسة الأرمنية كانت كثيرة لكنها لم تصل إلى نتيجة.

(1) المسيحية عبر تاريخها، م.س.، ص 622.

(2) المسيحية عبر تاريخها، م.س.، ص 623.

فيما يخص الموارنة فقد كان من نتائج العلاقات المباشرة والمتواصلة بين روما والكنيسة المارونية أن أسفرت عن ليتنة هذه الأخيرة، خصوصاً في حقل الطقوس والتعليم وبدأت تلك الليتنة في نهاية القرن 16 في مجامع قنوبين (1580 - 1596) واستملكت في مجمع اللويزة (المجمع اللبناني 1736). ففي سنة 1606 تبنى البطريرك يوسف الرزي (1596 - 1608) المدافع عن الليتنة والمقدام بهذا الصدد، التقويم الغريغوري، مُدخلاً بذلك الإصلاح التقويمي قبل سائر الكنائس الشرقية بقرنين.

في سنة 1585 طبعت «رتبة الجناز» بحسب الطقس الماروني، أعقبتها «الأناجيل الأربعة» (1591)، ثم «القداس الخلقيدوني» (السرياني) حسب طقس الكنيسة المارونية (1594)، وكتاب «خدمة القداس»، وكتاب «الساعات السبع القانونية» (السواعي) (1604). وفي سنة 1624 طُبع أول كتاب قداس ماروني باللاتينية. أما الكتب الدينية باللغة العربية فهي بالتأكيد كثيرة. ففي سنة 1566 أبصرت النور الطبعة العربية «للتعليم المسيحي الروماني»، وقد تكرر طبعه مرات عديدة، وفي سنة 1613 طبعت ترجمة «التعليم المسيحي لبلارمينُس» (Bellarmin).

إنما يبقى الحدث الثقافي الأبرز والأهم إنشاء المعهد الماروني في روما عام 1584، وقد عهد بإدارته إلى الآباء اليسوعيين، فشكّل البوتقة التي تكوّنت فيها سريعاً نخبة الكنيسة المارونية، التي تخطّى إشعاعها الروحي والفكري الحدود الجغرافية. وفي الشرق الأدنى أنشأ المرسلون مدارس عديدة في طرابلس وحلب ودمشق أسهمت في تنشئة كهنة مثقفين، وفي تطوير ثقافة العلمانيين. ففي القرن السابع عشر أكبّ المسيحيون على دراسة اللغة العربية، بعد ما كانت قد حُرمت عليهم بأمر من الخليفة العباسي المتوكل (847 - 861). فكانت بواكير تآليفهم إيذاناً بنهضة الآداب العربية. فأنشئت سنة 1610 مطبعة دير مار قزحيا في شمالي لبنان، وأخريان أنشئتا في القرن الثامن عشر،

الأولى في حلب سنة 1707 والثانية في دير مار يوحنا الصايغ - الخنشارة (1725) في المتن لبنان.

أما في أوروبا فقد أسَّس الماروني يعقوب قمر، سنة 1596، المطبعة العربية في روما، مقدّماً بذلك للكنيسة الرومانية أداة مميّزة لنشر الكثلكة في الشرق. وفي السنة عينها (1596) طبع في روما «الغرامطيق السرياني» الذي كان قد ألّفه البطريرك العتيد جرجس عميرة (1634 - 1644) زميل البابا أوربانُس الثامن في روما، وجبرائيل الصهيوني. وبعد أن علّم في مدرسة سامپيانسيا في روما استدعي إلى باريس، في عام 1614، من قبل الملك لويس الثالث عشر. وكان في أصل إنشاء كرسي اللغتين العربية والسريانية في الكوليج دو فرانس، وأول أستاذ لهما خلفه إبراهيم الحاقلاني الذي نهج النهج الثقافي عينه.

الخاتمة

لقد حاولنا، في العرض الذي تقدم، أن نعطي باختصار كلي صورة شاملة عن وضع الكنائس الشرقية خلال الفترة الممتدة من سنة 1517 إلى سنة 1650. وكان لا بد من العودة إلى الوراء والتطلع إلى الأمام لتوضيح الوضع القائم، فقيام حكم إسلامي جديد - الحكم العثماني - في المنطقة، والعلاقات الإدارية التي حاول البطاركة الأرثوذكس الشرقيون تنظيمها مع بطريركية القسطنطينية وكنيسة روسيا، ونشاط المرسلين واستئناف محاولات الاتحاد مع الكنيسة الرومانية، حددت جميعها على مستويات وفي حقول مختلفة حياة الطوائف المسيحية الشرقية وسياسة رؤسائها الكنسيين.

وإذا كان الوضع الاقتصادي لم يزدد إلا تدهوراً، وقد دفع الكثيرين إلى اعتناق الإسلام أو الانتقال إلى المذهب الكاثوليكي، إضافة إلى إلغاء العديد من الأبرشيات، وإقفال العديد من الكنائس لقلة عدد الكهنة والمؤمنين، فإن الحياة الثقافية والدينية والروحية قد عرفت بعضاً من التحسن ينبئ عن تطورات في المستقبل.

فأعمال بعض كبار بطاركة اليونان أو المشربين بالثقافة اليونانية، وأعمال بعض البعثات الكاثوليكية، إضافة إلى عبقرية الكنائس المحلية، قد ساهمت جميعها فعلياً في هذه النهضة الأولى. فالوضع، وإن عرف بعضاً من الفروق بين كنيسة وأخرى أو طائفة مسيحية وأخرى، شكّل فيه الأقباط والأرمن والموارنة الطوائف الأشد تماسكاً والأكثر حيوية. كذلك البطاركة الأرثوذكس، فإنهم قد شغلوا مراكز مهمة تخطّى فيها نشاطهم بعيداً عن الحدود الجغرافية لكنائسهم الخاصة.

* * *

الفصل الرابع

المسيحيون المشرقيون في ظل التنظيمات العثمانية

1 - توطئة

إن العهود الإسلامية، العربية منها وغير العربية لم تقضِ على النصرانية في الشرق كما قُضي عليها في المغرب العربي. وهناك أسباب أعمق. فالمسيحية كانت أكثر تأصلاً في الشرق. والنظام البطريركي الذي ساد في الشرق دون الغرب، وفّر للنصارى إطاراً ناجعاً وترابطاً دينياً شبه قومي. والأديرة العديدة التي ظلّت قائمة خلال هذه العهود احتضنت الثقافة المسيحية أجيالاً، وعملت على إشعاعها في جميع أنحاء العالم العربي. وهناك أيضاً الاحتفالات الطقسية بلغة الشعب، وما تحفل به من تعاليم عقائدية وعِبَر روحية ساعدت على تغذية إيمان المؤمنين وتقواهم.

إنما عشرة قرون من حكم إسلامي يرتبط فيه الدين والدولة قد خفضّ عدد النصارى وأوهى طاقاتهم

الروحية والثقافية. فالكنيسة في العالم العربي والإسلامي في المشرق، قد تضاءلت علاقاتها بسائر الكنائس وأمسى ارتباطها بها مشبوهاً وشبه محظور، فتقلصّ نفوذها الاجتماعي والسياسي وانحصر همها في الليتورجيا والعبادة والحفاظ قدر المستطاع على الكيان الموروث. وفقدت مركزها الطليعي الذي احتلته في القرون الخمسة الأولى. ولكن إمكانياتها بقيت دفينة، فما أن بدت طلائع النهضة وتمكن الشرق المسيحي من استعادة روابطه بسائر العالم المسيحي حتى هبت كنيسة البطريركيات القديمة تضطلع ثانية برسالتها وتقوم بأعبائها، رغم ما آلت إليه من تضعضع قواها وتضاؤل عدد أبنائها. فعهد انطلقت رياح التجديد والنهضة تعصف في أوروبا، كانوا النصارى في الشرق يعانون أصعب أيامهم. إلا أن فجر النهضة بدأ يلوح في الشرق أيضاً. فقد فتر العداء المستحكم بين الدول الإسلامية والدول المسيحية الغربية، من يوم انفصل الدين عن الدولة في الغرب في مطلع العصور الحديثة. وزالت فكرة الحملات الصليبية. وعقدت المعاهدات بين السلطان العثماني سليمان القانوني والملك الفرنسي فرنسوا الأول في أواسط القرن السادس عشر.

2 - فلسفة العثمانيين السياسية - الملّة والامتيازات الأجنبية

اعتبر باحثون كبار[1]، أن فلسفة العثمانيين السياسية، كما كان يفهمها الوالي التركي العادي على الأقل، كانت تقوم على أن الشعوب المغلوبة، من غير المسلمين، كانوا: رعية، يتعهدهم: الراعي، لمنفعة الفاتح المسلم. وهذا التعبير المستعار من حياة البدو في الجزيرة العربية، كان يعبّر كذلك عن المدارك التقليدية التي كانت تجول في أذهان الأجيال المتحدرة من القبائل البدوية في آسيا الوسطى.

(1) حتّي، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، م.س.، ج2، ص 313.

فالشعوب المغلوبة في رأيهم، بمثابة المواشي البشرية، ولذلك اقتضى أن: يحلبوا ويجزوا، وإنما يتيسر لهم أن يعيشوا كما يبتغون ما داموا لا يسببون المتاعب للراعي الشهم.

جنّد العثمانيون العدد الكبير من أسرى الحرب والرقيق الذي كان في حوزتهم، وأولاد النصارى الذين كانوا يؤخذون في مقابل الضرائب (الجزية والخراج) ثم يدربون ويربون كمسلمين. وكان هؤلاء المجندون يخعضون لمنهج عنيف من التدريب في اسطنبول يستغرق سنين كثيرة، ويمرون في مباريات شاقة وغربلة دقيقة. فمن أبان عن فطنة وتوقّد ذهن أعد من جديد لتولي المناصب الحكومية، ومن تميز بالقوة الجسدية وجه إلى الخدمة العسكرية في الجيش العثماني، وكان أصلبهم يحوّل إلى فرقة المشاة المعروفة بالانكشارية. وكانت طبقة الحكام وطبقة الجند في السلطنة في أول الأمر، تنتقيان منهم على سبيل الحصر[1]، فرؤساء الوزارة (الصدور العظام) والوزراء وأمراء البحرية والقواد، وحكام الأقاليم جميعهم كانوا في ما سبق عبيداً، وكذلك بقوا. فكانت أرواحهم وأملاكهم في كل آن تحت رحمة سيدهم السلطان الذي ما ترد يوماً في ممارسة حقه في هذه الملكية، وقد ظل هذا النظام معمولاً به حتى القرن 18 عندما وجد الآباء النصارى مخرجاً من المأزق الذي كانوا فيه فصاروا يفتدون أولادهم بدفع بدل من المال. وفي الوقت ذاته وجد الآباء المسلمون أنه من الخير لمستقبل أولادهم أن يرسلوا إلى المدرسة الحربية التي كان يتدرب فيها «العبيد». وأصبحت كلمة «قول» (عبد) المصطلح الذي يعني «خادم السلطان».

لقد كانت الحكومة العثمانية حكومة «عبيد» على رأسها السلطان تحرسه جماعة من العبيد الخصيان. وكان للسلطان «حريم» تعنى بشؤونه جوارٍ ووصيفات من الإماء (الأغلبية

(1) موسوعة عالم الأديا، نوبليس، ج9، م.س.، ص 197.

منهن كنَّ من النصارى وكذلك الخصيان). وكانت صلة الوصل بينه وبين أجزاء السلطنة موظفين يعتبرون عبيداً عنده، وله أن يحكم عليهم، وأحياناً كثيرة كان يحكم، بالموت فضلاً عن حجز ممتلكاتهم وتجريدهم منها. وكثيراً ما يكون السلطان نفسه ابن جارية. وبما أن قطع أعضاء الجسد أمر غير جائز في الفقه الإسلامي فإنهم كانوا يستقدمون الخصيان من بلاد القوقاز (نصارى) حيث كانوا يأسرون الغلمان ويخصونهم قبل سن المراهقة، كما كان حكام مصر يجلبون العبيد من السودان إلى مصر حيث كان الأقباط النصارى يقومون بعملية الخصي.

وقد اعتمد العثمانيون أساساً آخر للتنظيم الإداري هو: التابعية الدينية. ذلك أن المجتمع في الشرق الأدنى كان، منذ عصور عريقة في القِدَم، يقسم على أساس الملة بدلاً من العرق والعنصر. وكانت نواة الملة في التنظيم الإداري الأسرة، لا الاعتبار الجغرافي. ومن هنا كانت العقيدة والقومية في أذهان الناس اعتبارين متشابكين يتعذر الفصل بينهما. وكان كل من الفئات الدينية في السلطنة العثمانية تُسمى ملة. وتعني كلمة ملة (Millet) في اللغة التركية «أمة» والصفة «مليّ» (Milli) تعني قومي أي خاص بأمة أو شعب. اشتقت الكلمة التركية ملة من الكلمة العربية ملة وجمعها ملل. ترد هذه الكلمة في القرآن 15 مرة تحمل فيها دائماً معنى الدين. وفي هذه الآيات الخمس عشرة تعني كلمة ملة ثلاث مرات الأديان الوثنية[1]، ومرتين دين أنبياء قبل الإسلام[2]. ومرة دين العبرانيين والمسيحيين[3] وفي بعض السور تعني هذه الكلمة دين إبراهيم الخليل بصفته الدين التوحيدي الحقيقي «ملة إبراهيم» وقد وردت

(1) قرآن: الأعراف 86 - 87، 88 - 79؛ إبراهيم 16؛ الكهف 19 - 20.

(2) قرآن: إبراهيم 6؛ 6 - 7.

(3) قرآن: البقرة 14 - 15.

ثماني مرات[1]. وإن كلمة «الملّة» بإضافة «ال» التعريف إليها، وحتى بدون أن تسبقها كلمة أهل، هي دين الإسلام، أي المؤمنون المسلمون. كما أن «الذمة»، بدون أن تسبقها كلمة أهل أيضاً، تدل على أهل الكتاب من اليهود والمسيحيين والصابئة. وفي خلاصة القول، فكلمة «ملّة» إذاً هي تعبير تقني استعملته الدواوين المركزية قبل القرن 19 لتدل به على الطوائف الدينية غير الإسلامية في السلطنة العثمانية.

كانت أكبر الملل اثنين: ملّة الإسلام وملّة الروم الأرثوذكس[2]. وكان الأرمن واليهود يُعدّون في جملة الملل. وكانت جميع الملل غير المسلمة، تبعاً لهذا النظام، مقسّمة إلى طوائف دينية يرأس كلاً منها رئيس من أبناء الطائفة يمارس بعض المهام المدنية الخطيرة كالقضايا التي تتعلق بالأحوال الشخصية كالزواج والطلاق والإرث والتبني والتربية الدينية والمؤسسات الدينية. وزادت الحالة تعقيداً، وذلك أن «الأمة» بالمعنى الديني أصبحت تعني «الأممية» فصار الموارنة والكاثوليك ديناً في صف واحد مع فرنسا، والروم الأرثوذكس مع روسيا، والبروتستانت مع بريطانيا، بحيث أدى هذا الوضع إلى إنشاء نظام خاص بحكومات الأقليات الخاضعة. وكان الأوروبيون المقيمون في البلاد: من بندقيين وبروسيين وفرنسيين وإنكليز، يُعاملون كسائر الملل، ففي السنة 1521 عقد السلطان العثماني سليمان القانوني معاهدة مع البندقيين في ثلاثين فصلاً، ثبّت فيها الامتيازات والحقوق التي كان أفرادها يتمتعون بها

(1) قرآن: البقرة 124 - 130، 129 - 135؛ آل عمران: 89 - 95؛ النساء: 124 - 125؛ الأنعام 161 - 162؛ يوسف 39، النحل: 123 - 124، الحج 77 - 78.

(2) الروم جمع رومي. كانوا يطلقون هذا المصطلح أولاً على الأوروبيين ولا سيما على شعوب الإمبراطورية البيزنطية، ثم صاروا يطلقونه على سكان الدولة السلجوقية في آسيا الصغرى.

في العهد البيزنطي، كما أنها حاولت أن تحدد امتيازاتهم وواجباتهم بقانون.

وفي عام 1535، منح السلطان سليمان القانوني الفرنسيين، في عهد ملكهم فرنسوا الأول، الامتيازات ذاتها التي كان قد منحها إلى البندقيين. وكانت هذه الامتيازات أساساً لازدهار التجارة الفرنسية وانتشارها في الشرق[1].

وفي عام 1580، نال الإنكليز امتيازاتهم. وبموجب هذه المعاهدات لم يكن التجار الأوروبيون وغيرهم من الأجانب القاطنين في السلطنة العثمانية يُقاضون حسب القوانين العثمانية بل كانوا يحتفظون بكامل حقوقهم كرعايا دولهم ويحاكمون في محاكم قنصلية، أي أن القانون العثماني لم يكن يطالهم بشيء. وفي عام 1569 و 1581، حصلت فرنسا على امتيازات أخرى جعلتها وحدها حامية جميع السفن الأجنبية. وفي عام 1740، وقع السلطان العثماني محمود الأول معاهدة مع ملك فرنسا لويس الرابع عشر، تنص بنودها على أن لفرنسا الحق في أن تحمي الحجاج الفرنسيين وجميع الحجاج والزوار الذين يؤمّون كافة بلدان السلطنة العثمانية. وهذه الامتيازات التي حصلت عليها فرنسا، أصبحت أساس الادعاء بأنها حامية جميع النصارى الكاثوليك في بلاد الشام ومنهم موارنة لبنان وسوريا[2].

ومع مرور السنين، تطورت هذه الامتيازات، فأصبحت مرتكزاً للتدخل الأجنبي في شؤون الدولة العثمانية الداخلية، خاصة وأن السلطنة راحت تضعف مع الأيام «فسميت بالرجل المريض». هذه الامتيازات عملت على إفساد ضمائر الموظفين الأتراك، وكثير

(1) Nassim, Sousa, The Capitulary Regime of Turkey, Baltimore, 1933, p 314 - 320.

(2) Charles, Roux, France et Chrétiens d'Orient, Paris, France, 1939, p 68 - 77.

منهم قد فسدت ضمائرهم من قبل. ومهدت السبل لقروض مالية بفوائد باهظة، واستغلال الموارد الطبيعية، وللحصول على امتيازات بشروط ممتازة لمد خطوط سكك الحديد، واستغلال المناجم وغيرها من المصالح العامة. لقد أصبحت الحياة الاقتصادية في السلطنة في قبضة يد الأجانب، خاصة الفرنسيين والإنكليز. وانعكست الآية فأصبحت الامتيازات التي كانت تمنحها دولة قوية ذات سيادة إلى دول صديقة حقوقاً تفرضها دول قوية على دول مستضعفة رضخت إلى ما كان يملى عليها من شروط. وقد استمرت هذه الامتيازات معمولاً بها إلى أن ألغاها الباب العالي[1] عندما دخلت السلطنة العثمانية إلى جانب ألمانيا الحرب العالمية الأولى عام 1914.

3 - سياسة فرِّق النصارى تسُدْ عليهم - الابتزاز المالي

لقد رأى السلاطين العثمانيون من الحكمة أن يظلّ الشقاق قائماً بين الكنسيتين اليونانية واللاتينية، فراحوا يوصلون إلى السدة البطريركية في اسطنبول المعارضين للاتحاد بين الكنيستين. وحل السلطان العثماني محلّ الإمبراطور البيزنطي، فأصبح يثبت البطريرك بقوله[2]:

«كن بطريركاً حرسك الله وسأوليك عطفي. وتمتع بجميع الحقوق التي مارسها سلفاؤك».

وإذ حصر العثمانيون الشعب المسيحي الأرثوذكسي بالبطريرك الذي كان من حقه النظر في الخصومات. ومن واجبه جمع الضرائب المفروضة على الروم وكنائسهم، عاد عدد كبير من الروم إلى اسطنبول واستقروا حول

---

(1) الباب العالي كناية عن البلاط العثماني الذي كان مركز الدوائر الحكومية الرئيسية. وقد سُمي بالباب العالي نسبة إلى البوابة العالية الضخمة المؤدية إلى صحن البلاط.

(2) Souvorov, N. Manuel De Droit Eclésiastique, p 78.

- موسوعة عالم الأديان، م.س.، ج9، ص 199.

البطريركية، وكان لهم من ثروتهم القائمة على التجارة ومن براعتهم في السياسة ما ضَمَنَ لهم مركزاً رفيعاً في مختلف العهود العثمانية[1].

كان مذهب السلطنة العثمانية المذهب الحنفي السني، وقد طبّقه السلطان بحذافيره واعتزّ به وبأحكامه، لكنه قال في الوقت نفسه بـ «العادة والعرف والقانون». والعادة هي ما استمرّ الناس عليه عند حكم العقول وعادوا إليه مرة بعد أخرى. والعرف هو ما استقرّ في النفوس من جهة شهادات العقول وتلقّته العقول السليمة بالقبول، وهو عند العثمانيين كان إرادة السلطان السنية، وهو من المعاني الخصوصية التي انفردوا بها. والقانون هو العرف المدوّن بأمر السلطان أو مجموعة الإرادات السلطانية المدوّنة، وهذه الإرادات السنية كانت لا تصدر قبل مشاورة العلماء المقرّبين من السلطان العارفين المطّلعين الذين كانوا يجارون السلطان في فتاويهم للمحافظة على المصلحة السياسية والاجتماعية بمقتضى الظرف. من هنا كانت الامتيازات التي خصّ بها السلطان محمد الثاني الفاتح وخلفاؤه بطاركة القسطنطينية (اسطنبول)[2].

قبل فتح القسطنطينية، كان البطريرك البيزنطي يُعتبر الثاني بعد بابا روما وكان يتقدّم على بطاركة الشرق الثلاثة: الأنطاكي، والأورشليمي والإسكندري، الذين سبق لهم واعترفوا بهذا التقدم. وكان لقب البطريرك البيزنطي «المسكوني» أي بطريرك الإمبراطورية. ورغم اعتراض روما على هذا اللقب، فبطاركة الشرق الثلاثة، دون بطريرك الموارنة، قد وافقوا على ذلك. وهكذا فعندما استولى العثمانيون على البلاد، أصبح بطريرك القسطنطينية، بطريرك السلطنة العثمانية.

أمام هذا الواقع، أدرك سلاطين بني عثمان أن خير وسيلة للسيطرة على

(1) رستم، كنيسة مدينة الله، م.س.، ج3، ص 6.

(2) رستم، مماثل، ص 13.

الشعوب المسيحية الخاضعة لسلطانهم، إنما هي تقوية مركز البطريرك القسطنطيني وتوسيع سلطته الروحية. فرسموا بأن تخضع له جميع الشعوب التابعة للطقس البيزنطي، ومنعها من الالتجاء إلى رئيس روحي آخر. لقد أصبح هذا البطريرك «بابا الشرق» مقابل بابا روما، تدعم سلطته السلطنة العثمانية الشاسعة الأطراف. وبعدما حولوا كنيسة «أجيا صوفيا» إلى مسجد، أصدر السلطان فرماناً أكّد به للروم على أنه يحترم كنائسهم ومعابدهم ويمنحهم الحرية المطلقة في ممارسة شعائرهم الدينية. واعتادت الحكومة العثمانية بعد ذلك أن تأخذ من كل مرشح إلى السدة البطريركية مبلغاً معيناً من المال. وازداد هذا المبلغ على كر الأيام حتى أضحى عبئاً ثقيلاً ناء به كاهل كنيسة اسطنبول. وفرض السلطان على البطريرك هذا، علاوة على ذلك، أن يدفع له كل سنة مبلغاً محدداً من المال، فإن امتنع عن دفعه أقاله ونصّب غيره[1].

في العام 1729، حظّرت روما على الكاثوليك الاشتراك مع الأرثوذكس في الأسرار، فتوقفت حركة التقارب الديني بين الغرب والشرق. وهذا ما أثلج صدر السلطان والسلطات العثمانية، فسياسة فرّق تسدْ كانت مستمرة وتخدم مصلحة السلطنة، فيجب العمل باستمرار على شرذمة النصارى وعدم اتحادهم، ففي الاتحاد قوة، وهم بغنى عنها مهما كلف الأمر.

في مطلع القرن التاسع عشر، ابتدأت حركة تحرر الشعوب المسيحية البلقانيةمن نير الاستعمار العثماني، ورافقها حركة تحرر كنائس هذه الأقطار من سلطة بطريرك اسطنبول[2].

4 - الحضارة التركية ودور النصارى فيها

«إن ما ندعوه حضارة تركية ليس سوى مزيج عجيب غريب من عناصر

(1) يتيم، ميشال، تاريخ الكنيسة الشرقية، طبعة ثالثة، جونيه، لبنان، 1991، ص 275.

(2) مماثل، ص 276.

حضارية مختلفة مستمدة من الحضارة المغولية والفارسية والعربية والبيزنطية المسيحية. أما العناصر الحضارية المغولية المتمثلة في الحضارة التركية، فقد كانت القبيلة الرحلية، وحب التوسع، وميلاً فطرياً للحرب والقتال. وأخذ الأتراك من الحضارة الفارسية، حيث توطنوا زمناً قبل زحفهم غرباً، فنون العمارة والرسوم الفنية والأساليب الأدبية وعادة تعظيم الملوك والسلاطين وتمجيدهم. وقد كان البلاط السلجوقي في آسيا الصغرى متأثراً إلى حدٍّ بعيد بالحضارة الفارسية. وقد كان أثر بيزنطية المسيحية في الحضارة التركية مباشراً أو عن طريق السلاجقة. فقد أخذ الاتراك عن البيزنطيين كثيراً من تنظيمهم العسكري ومن إدارتهم الحكومية.

وقد تبع التدهور السياسي تقهقر في الحضارة، ففيما كانت أوروبا تسير قدماً إلى الأمام مخلفة وراءها العصور المظلمة لتدخل عصر النور، وفيما كانت أوروبا تسعى للسيطرة على قوى الطبيعة للاستفادة منها وتشق سبلاً جديدة في العلم والتكنولوجيا، وتجني فوائدها، كانت تركيا ترسف في قيود التقليد متغافلة عما يجري في العالم حولها من تقدم ورقي.

وما ترجم عن اللغات الأجنبية في هذه السلطنة فقد كان عمل النصارى واليهود. وقد كان لهذا التأخر في اللحاق بركب الحضارة أثر سيئ خطير. وقد كان الرعايا المسيحيين أسرع إلى التجاوب مع حضارة الغرب وأكثر نزوعاً إلى التقدم والرقي. فازدادت الهوة السحيقة بين الحاكم والرعية».

5 - الإرساليات المسيحية في السلطنة العثمانية

تزامن نشاط الكنيسة الكاثوليكية الرسولي، الذي يشكل إنشاء «مجمع نشر الإيمان» عام 1622 إحدى أبرز مراحله، مع اللقاء الاقتصادي والسياسي للشرق والغرب. كانت فرنسا أول من انضمّ إلى هذا الميدان بواسطة المعاهدة التي وقعها سفيرها في عام 1569 مع السلطنة العثمانية. وعندما دخل أول راهب يسوعي، المدعو

لويس غرانجيه (Louis Granger)، جورجيا عام 1614، كان الفضل بذلك يعود إلى السفير الفرنسي لدى الباب العالي العثماني، أشيل هارلي هالي دو سانسي. وبالفعل قام مبعوث حاكم منغريلي (Mingrelie)، وهي المنطقة الغربية من جمهورية جورجيا الحالية، إلى اسطنبول للتوسل إلى السفير الفرنسي كي يجد له كهنة يحتاجهم بلده. فنقل السفير هذا الطلب إلى رئيس اليسوعيين في اسطنبول فلبّى الأب غرانجيه الطلب بسرور.

توافد المرسلون الغربيون في مطلع هذا القرن، السابع عشر، وجعلوا من حلب نقطة ارتكازهم. واستفادوا من حسن ضيافة السلطات الكنسية فنشروا شيئاً فشيئاً الأفكار والروحانية الغربية. كان الروم الملكيون في أول أمرهم أكثر تحفظاً من سائر الطوائف ثم قبلوا إعادة الشركة مع روما مع التمسك الشديد بتراثهم التقليدي. وقام تجار حلب الأغنياء بتضحيات مالية باهظة كي تعترف السلطنة العثمانية بالسلطة الكاثوليكية. ورغم نفوذ ممثليهم في اسطنبول اضطروا إلى تسليم الكاتدرائية العام 1758 للأسقف اليوناني الأرثوذكسي التي اعترفت به الدولة «العلية».

من حلب اتجه المرسلون نحو دمشق ولبنان. ونشطت الحركة الكاثوليكية في دمشق التي أعطت اسقفين كبيرين هما: المطران أفتيميوس صيفي والبطريرك كيرلس طاناس. وفي لبنان كان أميره فخر الدين الثاني قد تحالف مع آل مديسيس أمراء فلورنسا (إيطاليا) ليدعم استقلاليته تجاه السلطان ويفتح بلاده للحداثة. وهو الدرزي المذهب ساند المسيحية من موارنة وملكيين. واستحصل لكاتبه الملكي إغناطيوس عطيه كرسي صيدا وسمح له ببناء الكاتدرائية، واصبح هذا بطريركاً من عام 1619 إلى 1634. وإن يوسف باشا سيفا، حاكم طرابلس والمنافس لفخر الدين، لجأ هو أيضاً إلى كاتب ملكي هو سليمان البتروني. وبفضل هذا أعيد ترميم وفتح دير البلمند وبُنيت كاتدرائية طرابلس. وإن مدن

الساحل اللبناني التي أجلي سكانها المسيحيين بعد اندحار الفرنج، عمرت مجدداً بالنصارى وجلهم من الملكيين، إذ كان الموارنة منحصرين في الجبل اللبناني الشمالي وبعده إلى جبل لبنان الجنوبي.

استفاد عدد كبير من النصارى، ولا سيما الموارنة والملكيين، من الانفتاح السياسي ليدرسوا في روما في المدرسة اليونانية أو المدرسة الأوربانية (انتشار الإيمان) أو المدرسة المارونية (للموارنة) أو في باريس حيث فتح الملك لويس 14 معهداً للشرقيين النصارى. هؤلاء التلاميذ الذين درسوا في الغرب، عادوا وساندوا جهود المرسلين لنشر الأفكار الكاثوليكية. والجدير ذكره أنه عندما تعرض الكاثوليك إلى المضايقات والمظالم في الديار العثمانية، هاجر عدد كبير منهم إلى لبنان حيث الأمراء، حكامه، في سياستهم الاستقلالية تجاه السلطان العثماني كانوا أكثر تسامحاً.

وجد المسيحيون في لبنان كرامتهم وحريتهم، بينما كانوا في الأراضي الخاضعة مباشرة للسلطان، مواطنين من الدرجة الثانية، يدفعون الجزية والخراج، ومحرومين من كامل حقوقهم المدنية. وتحت ضغوط الحكومات الغربية أصدر السلطان محمود الثاني ثم السلطان عبد المجيد (1839 - 1961) سلسلة تدابير تمنح للمسيحيين الحقوق المدنية والمساواة في القانون مع سائر الرعايا المسلمين، لكن ذلك لم يوضع موضع التنفيذ.

علاوة على لبنان، كانت مصر مركزاً آخراً للحرية، استقطب إليه العديد من المسيحيين ومنهم بالأخص الملكيين. كانت حملة بونابرت فتحت البلاد على العصرنة ثم تمكن محمد علي باشا من إعلان استقلاله عن السلطنة العثمانية. وبعد أن احتل سوريا راح يهدد اسطنبول. وقلقت الدول الغربية وخشيت أن يستغل الروس الموقف ويصلوا إلى المضايق وأن تحلّ دولة فتية قوية محل دولة ضعيفة - «الرجل المريض»، فأرغمته على التراجع ثم على الانسحاب من سوريا.

إن سياسته الليبرالية التي تابعها خلفاؤه جذبت إلى مصر العديد من النصارى لا سيما الكاثوليك منهم، واثقين من الإمكانيات المتاحة لهم لممارسة شعائرهم واستثمار مواهبهم في مجالات التجارة والأدب والصحافة.

وساهم المسيحيون في النهضة الأدبية العربية. وبدأت الحركة في حلب في أواخر القرن 17 مع نخبة من الشبان حرصوا على إتقان العربية الفصحى فتتلمذوا للشيخ سليمان النحوي وبدأوا يكتبون بلغة سليمة ويقرضون الشعر.

واستقدم البطريرك اثناسيوس الدباس من رومانيا أول مطبعة عربية في الشرق (قبلها كمطبعة كانت مطبعة دير قزحيا للموارنة 1610)، بينما أنشأ الشماس عبد الله زاخر بمعونة أهالي بلدة الشوير، في دير مار يوحنا، أول مطبعة عربية في لبنان العام 1748 إلا أنها أضطرت إلى التوقف عن العمل سنة 1899 بسبب مزاحمة المطابع العصرية لها.

6 - الطوائف المسيحية الشرقية في تطوراتها الخاصة قبل السلطنة وفيها وبعدها

61 - النساطرة والكلدان

لم يتغير وضع الكنيسة النسطورية مع الفتح العربي. فالحكم في مملكة فارس لم يكن قط في يد المسيحيين. ولما استتب الأمر للعباسيين بمؤازرة الفرس، وقضوا على حكم الأمويين في دمشق، انتقل مركز الخلافة إلى العراق. وأصبحت العاصمة بغداد. فأصبح للنساطرة مكانة مرموقة في الدولة. ونقل البطريرك مركزه من المدائن عاصمة الفرس الساسانيين إلى بغداد. وكان للنساطرة شأن هام في نطاق الوظيفة والطب والترجمة.

إلا أن النساطرة فقدوا بسرعة أبرشياتهم التي كانت في الجزيرة العربية على سواحل الخليج، عن طريق الهجرة أو الدخول في الإسلام. بيد أنهم أسسوا أبرشيات جديدة في الغرب في المناطق التي كانت تحت الحكم البيزنطي وحيث كان التوسع

محظوراً عليهم (حلب - دمشق - القدس - قبرص) وامتدوا إلى الشرق خارج حدود الدولة العربية فقاموا بمجهود تبشيري عظيم في بلاد التتر والمغول والهنود والصينيين وازدهرت المسيحية في هذه المناطق من القرن الثامن حتى الرابع عشر.

ولم يتأثر النساطرة، وسوادهم في العراق وإيران، بالأحداث التي هزت بلاد الشام من القرن العاشر حتى الثالث عشر. ولما استولى المغول على العراق سنة 1258 وقضوا على الخلافة العباسية، تحسنت أوضاع النساطرة. فهولاكو الفاتح كانت أُمّه نسطورية وعدد كبير من شعبه على المذهب النسطوري. واعتلى السدة البطريركية عدة بطاركة من أصل مغولي، إلا أن معظم المغول الوثنيين انتحلوا الإسلام في القرن الرابع عشر وتألبوا على النساطرة. وقضى تيمورلنك على جماعاتهم في إيران والعراق. وأما من ثبتوا على إيمانهم ونجوا من المذابح فلاذوا بالجبال في مناطق كردستان وبحيرتي أورميا وفان.

وفي أواسط القرن السادس عشر بدأ الاتصال بين النساطرة والكنيسة الكاثوليكية وانقسموا إلى شطرين: شطر اتحد بروما محافظاً على طقوسه. وقسم بقي على مذهبه القديم. ودعي الكاثوليك كلداناً والنساطرة آشوريين.

وكان الآشوريون يتمتعون بشبه استقلال في معاقلهم الجبلية. وثاروا على العثمانيين إبان الحرب العالمية الأولى بتحريض من الإنكليز والروس ثم تخلى عنهم الخلفاء فاضطروا إلى الهرب من وجه الأتراك فنزحوا عن أراضيهم ولجأوا إلى العراق. وحل بهم في العراق نكسة جديدة سنة 1933 فلجأ عدد منهم إلى مناطق الجزيرة في سوريا ونفي بطريركهم إلى الولايات المتحدة. وأضحى الآشوريون الآن أقليّة مشتتة ما بين إيران والعراق وسوريا والقوقاس. ويبلغ عددهم زهاء مئة وعشرين ألفاً. وقد تحسنت أحوالهم في التسعينات في العراق وقد استعاد البطريرك جنسيته العراقية وتمكن من زيارة البلاد.

أما الفرع الكاثوليكي أي الكلدان

فهو أكثر ازدهاراً ويبلغ عدد أتباعه زهاء ثلاثمئة ألف، معظمهم في العراق حيث يكوّنون أكثرية المسيحيين. ولبطريركهم المقيم في بغداد مركز معترف به من الحكومة العراقية.

أما فخر الكنيسة النسطورية - الكلدانية فهي كنيسة الملبار في جنوبي الهند. وكانت في القرون الوسطى مرتبطة بالبطريرك النسطوري وكان يوفد إليها أساقفتها. ولما استولى البورتغال على الهند وافق الملبار على الاتحاد بروما. إلا أن اليسوعيين حالوا دون إقامة أساقفة من الطقس الملباري. وسنة 1599 في سينودس ديامبر فرضت عليهم تشريعات وعوائد لاتينية وولي عليهم أسقفاً راهب يسوعي لاتيني خاضع لرئيس أساقفة غوا البرتغالي. فاستاء الملبار من هذه التصرفات وانفصل عدد كبير منهم وأرسلوا إلى بطريرك السريان الأرثوذكس يلتمسون لهم أسقفاً سريانياً والترخيص في انتحال الطقس السرياني.

وفي القرن التاسع عشر حاول بطريرك الكلدان يوسف أودو أن يشمل بسلطته ملبار الهند (اتباع الطقس الكلداني) فرسم لهم أسقفاً. ولم تعترف روما بالأسقف الدخيل. وأصرّ قلة منهم على اتباع هذا الأسقف وانشقوا عن الكثلكة وعادوا إلى الكنيسة النسطورية. وحوالي عام 1930 انضم إلى الكثلكة عدد من الذين كانوا قد التحقوا بكنيسة السريان الأرثوذكس وحافظوا على طقسهم السرياني فأصبحت كنيسة الملبار القديمة مقسمة إلى أربع فئات: الفئة الكبرى كاثوليكية وتتبع الطقس الكلداني (باللغة المحلية) ويبلغ عددها زهاء مليون ونصف أو مليونين؛ وفئة غير كاثوليكية تتبع الطقس السرياني ويبلغ عددها زهاء المليون؛ وفئة كاثوليكية تتبع الطقس السرياني ويبلغ عددها زهاء المئة ألف؛ وفئة غير كاثوليكية تتبع الطقس الكلداني ويبلغ عددها عشرة آلاف.

62 - السريان اليعاقبة

اعترف العرب بكيان الكنيسة السريانية المونوفيزية (وتعرف عند العرب بالكنيسة اليعقوبية) بعد أن بات

الحكم البيزنطي يلاحقها لانحرافها عن المذهب الرسمي. وعومل السريان بأفضل مما عول به الملكيون، لانقطاع روابطهم بالبيزنطيين. وتمكنوا من التوسع جهة العراق بعد أن زالت الحدود الفاصلة بين دولتي الروم والفرس شرقي الفرات. وكان للسريان اليعاقبة من عظيم الشأن ما كان للنساطرة في حركة الترجمة وإنعاش العلوم والفلسفة عند العرب؛ ونبغ فيهم عدد من أعاظم المفكرين. إلا أن الغزوات والحروب التي أرهقت الأمة العربية عامة، والانقسامات الداخلية والعزلة، كل ذلك قد أضعف الكنيسة السريانية، فلجأ معظم أبنائها في أواخر القرون الوسطى إلى جبال طور عبدين ونواحي ماردين.

ولما نشطت الحركة الكاثوليكية في حلب في القرن السابع عشر قام بطريركان كاثوليكيان على رأس الطائفة السريانية. إلا أن معارضي الاتحاد بروما استحصلوا على أمر بنفي البطريرك الكاثوليكي. وانقسمت الطائفة السريانية إلى شطرين عام 1783 : شطر كاثوليكي وشطر أرثوذكسي ولكل منهما بطريركه وأساقفته وكهنته. وتنقل مركز البطاركة مع الأيام ويقيم بطريرك السريان الأرثوذكس منذ بضع سنوات في دمشق. والبطريرك الكاثوليكي في دير الشرفة في لبنان.

إن الكنيسة السريانية التي تحافظ على تقاليد طقسية جليلة أمست ضعيفة بسبب قلة عدد أبنائها، إلا أنها مع الكنيسة الهندية المرتبطة بها أخذت تلعب دوراً مسكونياً هاماً.

63 - الأقباط

الكنيسة القبطية هي كبرى الكنائس في مصر لأن الملكيين كانوا قلة في القرن السادس ونزح منهم عدد وافر مع الجيوش البيزنطية.

بقيت مصر في مأمن من الغزوات والحروب التي اجتاحت الشرق الآسيوي. ومع ذلك فقد ضعفت الكنيسة القبطية قبل سائر الكنائس الشرقية لأن معظم أبنائها كانوا من الفلاحين الأميين، وأما الطبقة الراقية المحصورة في الإسكندرية والمتأثرة

بالثقافة اليونانية فقد غادرت البلاد. وبلغ الأقباط قدراً من الازدهار الثقافي في القرنين الثالث عشر والرابع عشر مع الكاتبين أبي البركات وأبي عسال. إلا أن هذه النهضة لم تدم طويلاً.

وتحسّن وضع الأقباط مع محمد علي باشا، وازداد عددهم بسبب تحسُّن وسائل الوقاية الصحية. ونشأت بينهم طبقة مثقفة بلغت مراتب عالية وساهمت في نهضة البلاد واستقلالها. ونشاط الأقباط في مختلف قطاعات الحياة العامة في مصر لا يزال على اطراد وازدياد، تواكبه نهضة روحية وثقافية تعم كنيستهم. ويربو عددهم على عشرة ملايين ويكوّنون سبع السكان في مصر.

واعتنق الكثلكة عدد ضئيل من الأقباط في خلال القرن الثامن عشر. ولم تنشئ لهم روما بطريركية إلا في أواخر القرن التاسع عشر (سنة 1899). ويُعّد الأقباط الكاثوليك زهاء مئة ألف.

إن الكنيسة القبطية تمثل المسيحية المتأصلة في أرض مصر وهي، بروحانيتها تحافظ على تراث الآباء النساك وعلى طقوس الإسكندرية القديمة.

وترتبط بالكنيسة القبطية الكنيسة الحبشية. وكانت حتى السنين الأخيرة تحت ولاية أسقف واحد يختاره بطريرك الأقباط من بين الرهبان المصريين.

حافظت الحبشة في القرون الوسطى على استقلالها وبقيت تحت حكم ملوكها المسيحيين. إلا أن النصرانية فيها كانت سطحية. ولم تتمكن الكنيسة القبطية - وقد ضعفت بعد الفتح العربي - من بعث الحياة في الكنيسة الحبشية. ولكن، من بعد سقوط أسرة أكسوم المالكة، بدأت تظهر تباشير التجدد في القرن الثالث عشر، مع الأسرة السليمانية. وبلغت الحبشة عصرها الذهبي في عهد ملكها زارا يعقوب في القرن الخامس عشر.

في القرن السادس عشر، هدد الأتراك والعرب استقلال الحبشة، فاستجار النجاشي بالبابا والبرتغال.

واستسنح اليسوعيون هذه الفرصة ليدخلوا الحبشة. وفي الثلث الأول من القرن السابع عشر ازدهرت الحركة الكاثوليكية فيها وأُعلن الاتحاد سنة 1626. وعَيّن اليسوعيون البرتغالي مانديز بطريركاً على الأحباش. إلا أن المساعي لفرض الكثلكة وإدخال العوائد اللاتينية أحدثت حرباً أهلية، فقُطِعت العلاقات ثانية مع روما، وُطرد المرسلون الأوروبيون من البلاد. ولم يسمح لهم بالعودة إلا في أواسط القرن التاسع عشر.

ولما انتعشت الروح القومية في الحبشة مع النجاشي مناليك، هبّ الأحباش يطالبون بالتحرر من سيطرة الأقباط. وفي سنة 1929 منحوا خمسة أساقفة وطنيين علاوة على رئيس الأساقفة المصري الذي كان وحده يدير شؤون الكنيسة. وفي سنة 1948 تقرر أن يكون رئيس الأساقفة حبشياً. ومُنح لقب بطريرك كاثوليكوس سنة 1959، فتم بذلك استقلال كنيسة الحبشة، مع الاعتراف بالأولية الشرقية والروحية لبطريرك الإسكندرية القبطي.

يعّد النصارى في الحبشة أكثر من ثمانية ملايين، أغلبيتهم الساحقة من أتباع الكنيسة الحبشية الأرثوذكسية. وهناك زهاء 150 ألفا من الكاثوليك يتبع نصفهم الطقس الحبشي والنصف الآخر الطقس اللاتيني. وبإمكان الكنيسة الحبشية أن يكون لها شأن كبير في أفريقيا. وهناك نهضة روحية وثقافية تبشر بالخير.

64 - الأرمن

تاريخ الشعب الأرمني وتاريخ الكنيسة الأرمنية مرتبطان ارتباطاً وثيقاً.

كانت أرمينيا في العصور القديمة موضوع نزاع بين الرومان والفرس. وبقيت كذلك في العصور الوسطى ما بين البيزنطيين والعرب.

كان البيزنطيون يحاولون دوماً حمل الأرمن على القبول بالمجمع الخلقيدوني معتمدين وسائل الضغط أحياناً، بلوغاً لهدفهم. فنشأ نفور عميق بين الأرمن والبيزنطيين. أما العرب الذين سيطروا على البلاد منذ سنة 653، فقد تركوا للأرمن، بعد فترة

قصيرة من القمع، شيئاً من الحرية السياسية وكامل الحرية الدينية. ثم ولوا عليهم أسرة محلية هي آل بغراتوني (بقرادوني) .

في سنة 1054 استولى البيزنطيون على أرمينيا وحاولوا إلحاق الأرمن بالمذهب الخلقيدوني وهو المذهب الرسمي في الدولة. إلا أن الأتراك السلاجقة كسروا البيزنطيين سنة 1071 في موقعة ملازكرت ووقعت بلاد أرمينيا تحت الحكم التركي. فكان بدء هجرة الشعب الأرمني إلى شمالي سوريا (منطقة أورفا) وإلى كيليكيا حيث أسسوا مملكة أرمينيا الصغرى. وانتقل مركز الكاثوليكوس من أرمينيا إلى قلعة الروم قرب أورفا ثم استقر في سيس في كيليكيا.

وكان الأرمن على اتصال ودي مع الصليبيين في إمارة أنطاكية المجاورة. واستعادت الكنيسة الأرمنية في هذه الحقبة اتحادها بروما وبلغت آنذاك عصرها الذهبي الثاني.

إلا أن العلاقات الطيبة بروما لم تدم بعد سقوط مملكة كيليكيا على يد مماليك مصر سنة 1375. وانقسمت بعد ذاك الكنيسة الأرمنية فئتين: فئة استعادت المركز التاريخي لكاثوليكوس الأرمن في اشميازين في جبال أرمينيا، وأخرى احتفظت بمركز الكاثوليكوس في سيس. فأصبح للأرمن كاثوليكوسان تقاسما المنطقة التي حل فيها الشعب الأرمني. ثم أعطي الأسقف الأرمني في كل من مدينتي القدس والقسطنطينية لقب بطريرك. والبطريرك في الكنيسة الأرمنية أدنى رتبة من الكاثوليكوس، ولكنه يتمتع باستقلال ذاتي.

ولما سيطر العثمانيون على البلاد أقروا للبطريرك الأرمني في القسطنطينية المسؤولية المدنية العليا على جميع الأرمن.

في مطلع القرن السابع عشر، في عهد الشاه عباس، استولى الفرس على جزء كبير من بلاد أرمينيا وضغطوا بشدة على الأرمن فانضم عدد كبير إلى الدين الإسلامي. وهاجر قسم كبير منهم إلى حلب وغيرها من المناطق الخاضعة للحكم العثماني. وسنة 1726

استخلص الروس من يد العجم جزءاً من البلاد الأرمنية وألحقوه بإمبراطوريتهم. وحافظ الشعب الأرمني على شخصيته بالرغم من جميع المضايقات والضغوط التي ألحقها به الفرس والروس والعثمانيون.

وفي أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين تعرّض الشعب الأرمني لمذابح ومحاولات إبادة، قام بها السلطان عبد الحميد وحكام تركيا الفتاة: (1894 - 1895 و 1909 و 1915 - 1920). وهاجر من تركيا من نجا من المذابح، ولم يبق من الأرمن فيها إلا قلة متمركزة في اسطنبول.

وأسّس الأرمن الذين أخضعوا للحكم الروسي جمهورية مستقلة سنة 1918 إلا أنها ما عتمت أن وقعت تحت سيطرة السوفيات. ويقيم الكاثوليكوس الأعلى للكنيسة الأرمنية ضمن حدود هذه الجمهورية الأرمنية السوفياتية (في اشميازين قرب إيريفان).

أما كاثوليكوس سيس فاضطر إلى مغادرة تركيا مع من تبقى من شعب على أثر انسحاب الفرنسيين من كيليكيا، وكانوا قد احتلوها مدة في أعقاب الحرب العالمية الأولى. ولجأ إلى لبنان واتخذ له مركزاً في أنطلياس.

ويعد الأرمن اليوم زهاء مليوني ونصف، منهم مليونان في أرمينيا السوفياتية التي استقلت استقلالاً تاماً بعد اندثار الاتحاد السوڤياتي عام 1990 والباقون موزّعون بين إيران وتركيا وبلاد الشرق الأدنى العربي. وهناك جاليات كبرى في فرنسا والأميركيتين.

إن الأكثرية الساحقة من الأرمن هم من أتباع الكنيسة الأرمنية الأرثوذكسية إلا أن هناك عدداً لا يستهان به من الكاثوليك.

إن حركة التقارب مع روما لم تندثر تماماً بعد عهد الصليبيين وقد أرسل الأرمن مبعوثين إلى مجمع فلورنسا. وازدهرت حركة الكثلكة بين الأرمن في القرنين السابع عشر والثامن عشر. وكان أسقف حلب الأرمني في مطلع القرن الثامن عشر أبراهام أرزيفيان كاثوليكي المعتقد. وفي سنة

1740 أُعلن كاثوليكوساً على سيس. فانشطرت الطائفة الأرمنية في إيالة سيس إلى شطرين أرثوذكسي وكاثوليكي. ونظم البطريرك الشاب طائفته رغم معارضة الأتراك. وكانت سلطته تشمل كيليكا وسوريا ومصر. أما باقي الأرمن الكاثوليك في تركيا فكانوا خاضعين للنائب الرسولي اللاتيني في القسطنطينية، ثم عيَّن لهم البابا بيوس الثامن رئيس أساقفة أرمنياً متعلقاً مباشرة بالكرسي الرسولي. وفي سنة 1867 اندمجت الإيالتان: إيالة سيس وإيالة اسطنبول وتركّزت البطريركية فترة في اسطنبول. وبعد الحرب العالمية الأولى انتقلت إلى لبنان. ويعدّ الأرمن الكاثوليك زهاء مئتي ألف نفس منتشرين في سوريا ولبنان وإيران والعراق وتركيا ومصر وسائر أنحاء العالم.

65 - الموارنة

لجأ الموارنة إلى جبال لبنان وعاشوا آمنين متمتعين بشيء من الاستقلال الذاتي. وتعاملوا مع البيزنطيين قبل الحملات الصليبية. ويتحدّث المؤرخ الفرنجي غليوم أسقف صور عن اتحادهم بالكرسي الرسولي ويقدر عددهم آنذاك بأربعين ألفاً. والله أعلم!! وتعاونوا مع الفرنجة واندمجوا في مجتمعهم وظلوا موالين للغرب حتى بعد اندحار الصليبيين. وأحاطتهم فرنسا بعناية خاصة.

وعادت العلاقات مع روما في مطلع القرن السادس عشر بعد أن انقطعت في فترة حكم المماليك. وطغا التأثير اللاتيني على الموارنة في طقوسهم وتشريعاتهم. وقد تربى عدد كبير من إكليروسهم في المعهد الماروني الذي أسسه في روما البابا غريغوريوس الثالث عشر. وكانوا رواد حركة الاستشراق في أوروبا.

وانفتح لبنان على الغرب في مطلع القرن السابع عشر مع الأمير فخر الدين الثاني وهو درزي. وتعاون الأمير مع الموارنة. ومن هذا التعاون الإسلامي المسيحي نشأ لبنان الحديث.

بعد مذابح عام 1860 نَعِمَ لبنان

بنظام خاص وولّي عليه حكام مسيحيون. وفي الجمهورية اللبنانية الحالية يقضي العرف و«اتفاق الطائف» بين اللبنانيين بأن يكون رئيس الجمهورية مارونياً. وينعم البطريرك الماروني بنفوذ سياسي وديني كبير.

لئن كان للموارنة أهمية قومية كبرى في لبنان، قد بات لهم أيضاً في العصور الحديثة شأن كبير من الوجهة الكنسية، خصوصاً في تاريخ النهضة الفكرية والدينية وفي دعم الحركة الكاثوليكية عند الملكيين والسريان والأرمن في القرنين السابع عشر والثامن عشر. وهم اليوم الطائفة الشرقية الوحيدة التي ليس لها فرع أرثوذكسي.

الكنيسة المارونية تعد أكثر من مليون ونصف مليون نسمة في لبنان وسوريا والدول العربية. أما في المهجر فلها عدد يتعدّى الملايين ولها طاقات روحية ضخمة، منها انفتاحها على الحركة المسكونية. وإن الإصلاح الطقسي الذي بدأ يعيد للطقس الماروني صفاءه الأنطاكي والنهضة اللاهوتية في معاهدها ورهبانياتها سوف يمكنان الطائفة المارونية من الاستمرار في تأدية رسالتها.

7 - الدور الفكري والديني للمسيحيين في السلطنة العثمانية (1516 - 1600)

71 - النهضة الأوروبية

في بداية القرن الخامس عشر وما بعد، كان الشرق العربي ينزلق في سبات عميق، بينما الغرب الأوروبي ينهض بنهضة فكرية كبيرة جداً، دفعته إلى الاتصال بالشرق الأمر الذي أدى إلى جذب الشرقيين شيئاً فشيئاً نحو هذا الغرب، إذ كانت حضارة الغرب آنذاك قد تفوقت على حضارة الشرق...

وكان المسيحيون، وفي مقدمتهم الموارنة، هم الذين فتحوا صدورهم لهذه الحضارة، بفضل مبادرات بابوات روما وعلى رأسهم البابا غريغوريوس الثالث عشر (1572 - 1585)، الذي أسّس في روما أول مركز علمي ديني للشرقيين، المدرسة المارونية في العام 1584، بإدارة الرهبنة اليسوعية. وقد

تلقف الموارنة هذا الحدث وأرسلت البطريركية المارونية عدداً من طلابها لتلقّف العلم من منهل هذه المدرسة، ليعودوا إلى لبنان حاملين ذخيرة علمية وفكرية كفيلة بإيجاد نظام تعليمي جديد في بلاد الشام.

لذلك فمن الواجب والضروري، دراسة الحركة النهضوية الأوروبية، لفهم مدى تأثيرها في أذهان طلاب هذه المدرسة التي أعطت رجالاً عظاماً دينياً وفكرياً وروحياً.

أ - النهضة في إيطاليا

في القرن الخامس عشر وقسم من القرن السادس عشر، قامت حركة ثقافية واسعة أطلق عليها اسم «النهضة» (La Renaissance) هذه النهضة التي تخلّت صراحة عن قِيَم القرون الوسطى المرتبطة بالإقطاع، «واتسمت بإحياء قِيَم الحضارة القديمة في الحضارة الأوروبية».

وكان لاختراع المطبعة آنذاك (Gutenberg)، إلى جانب اكتشاف «حِبر» يمكن من الطبع على وجهي الورقة، واستبدال الحروف الخشبية بالحروف المعدنية، الأمر الذي حسّن كثيراً التقنية الطباعية. فانتشرت المعارف في أوروبا كلها.

لقد ظهرت النهضة بأوضح وجوهها في إيطاليا، بفضل إعادة اكتشاف الحضارة القديمة، ولا سيما العالم اليوناني. فترجمت الفلسفة اليونانية إلى اللاتينية، وعرف الناس أرسطو وأفلاطون وأفلوطين وغيرهم من رجال الفكر الهلليني.

أما فيما يختص بالفن، فلقد شجعه البابوات بشكل كبير. واهتم الناس اهتماماً خاصاً بالنحت والرسم، فظهر فنانون عباقرة لا تزال أعمالهم خالدة حتى اليوم وإلى انقضاءالدهر، أمثال ميكل أنجلو (1475 - 1564) وليوناردو دافينشي (1452 - 1519) وغيرهم وغيرهم. فبرزت التماثيل والمنحوتات الفنية والرسوم الجدرانية المعبّرة على مختلف أشكالها، فالرسم كان مرآة الطبيعة الساحرة وأخذ مكانه في دورة الفنون.

لقد اكتشف الغرب الأوروبي ثانية الثقافة اليونانية القديمة.

ب - النهضة في فرنسا

عمل جاك لوفيفر ديتابل (Jacques lefevre d'Etable)، الفيلسوف واللاهوتي الكبير على إصلاح الإكليروس وعلى تعميم الكتابة، وترجم الكتاب المقدس إلى الفرنسية (1530) إلى جانب عدة مؤلفات للفيلسوف اليوناني أرسطو ولا سيما المقولات (Organon)، التي ألّفها بين (1501 و 1503) والشروح في رسائل القديس بولس والأناجيل الأربعة.

أما غيّوم بوده (Guillaum Budé) (1467 - 1540)، المتبحر في العلم والعالم اللامع باللغة اليونانية وآدابها، فقد نظم عدة بعثات ليأتي بمخطوطات يونانية. وهو الذي أسس «كلية فرنسا» (Ecole de France) 1530 في عام 1535 «الانتقال من الحضارة اليونانية إلى المسيحية. وقد حاول أن يوفّق بين درس القدماء وتعاليم الإنجيل.

أما روبير إيتيان (Estienne) (1553 - 1559)، فأدار عام 1524، مطبعة والده وأصبح في العام 1539 «طابع الملك»، فأصدر بين 1528 و 1546، الكتاب المقدس في اللغات اللاتينية والعبرية واليونانية.

أما المستشرق الفرنسي غيوم بوستيل (Guillaune Postel) (1510 - 1581) فعلّم اليونانية والعبرية والعربية في الكلية الفرنسية (Ecole de France) وكان راهباً يسوعياً ألّف كتابه «وفاق كره الأرض» داعياً إلى المصالحة بين المسلمين والمسيحيين.

ج - النهضة العلمية

في الطب، كان جوليو سيزاره سكاليجيرو (1484 - 1558) صاحب أعمال علمية لهيبوقراطُس وأرسطو ويتوفراسطُس، إلى جانب مؤلفات أدبية. وقام السويسري فيليب باراشاسي (1493 ـ 1541) بتجديد الطب تماماً،

وعلّم في بال، منتقداً جالينوس وابن سينا.

وظهر البولندي كوبرنيك الذي اهتم بالفلك وأحدث ثورة بكتابه «في ثورات الكرات السماوية»، خالعاً «مركزية الأرض التي تبناها بطليمس، وابدلها بمركزية الشمس. وأتى بعده الإيطالي غليليو (Galilée) (1564 - 1622) الذي اكتشف العديد من قوانين الميكانيكا والفلك، ثم أتى العالم الفلكي الألماني جون كبلير (1571 - 1630) الذي أصدر، وهو لا يزال شاباً، التمهيد (Prodronum) (1596)، فأثر بالعمق في الدروس الفلكية بفضل القوانين الثلاثية التي عرضها.

أما في الجغرافيا فقد قفز علمها قفزات إلى الأمام، فاكتشاف أميركا وغيرها واستعمال البوصلة ودرس الكواكب ومركزها بالنسبة إلى الأرض. فخريستوف كولومبوس (1451 - 1506)، اكتشف القارة الأميركية، بعد أن درس جغرافية بطليمس. وفاسكودي غاما (1469 - 1524) الذي دار حول رأس الرجاء الصالح وبرهن أن الأرض كروية، واكتشف طريق الهند. فلم يعد العالم مقتصراً على البحر المتوسط وأوروبا.

72 - النهضة الدينية

أ - الإصلاح الكاثوليكي

في نهاية القرن الخامس عشر وفي القرن السادس عشر كانت الكنيسة الكاثوليكية بحاجة إلى إصلاح يتشوق إليه جميع الناس. وبما أن الفساد كان قد أصاب عدداً من الباباوات، فلم ينجح المجمع اللاتراني (1512) الذي دعيت إليه الكنيسة الكاثوليكية، في الإقدام على ذلك الإصلاح. وأمام هذا الواقع، ظهر عدة مصلحين كنسيين ولا سيما مرتين لوثر (1483 - 1546)، الذي أحدث حروباً داخلية دينية رهيبة بين المسيحيين، فخلّف أخطر انشقاق في كنيسة الغرب. بحيث أوجد الحركة البروتستانتية.

هذه الحركة البروتستانتية، أثارت الاضطرابات الكبيرة في جسم الكنيسة

البابوية مما أدى إلى حركة معاكسة قام بها عدد من البابوات الكاثوليك أولهم البابا بولس الثالث (1534 - 1549). وواصل هذا الإصلاح طريقه على يد البابا يوليوس الثالث (1550 - 1555) وبولس الرابع (1555 - 1559) وبيوس الرابع (1559 - 1565) وبيوس الخامس (1566 - 1572) وغريغوريوس الثالث عشر (1572 - 1585) وسكتس الخامس (1585 - 1590). ودعا بولس الثالث إلى عقد المجمع التريدنتيني (1545 - 1563)، لكن لوثر توفي بعد بضعة أشهر، فلم يستطع مقاسمة نتائج المجمع.

ب - المجمع التريدنتيني (1545 - 1563)

في هذا المجمع أعيد النظر في كافة نقاط التعليم الكاثوليكي الأساسية وفي جميع المؤسسات الكنسية. وقد أعيد تحديد أكثر نقاط العقيدة الإيمانية. وأعيد إثبات ممارسات العبادة (أسرار كنسّية وتكريم السيدة العذراء، والقديسين والأيقونات). وأُعيد النظام: عزوبة الكهنة، وإقامة المطارنة في أبرشياتهم، ومنع الجمع بين المطرانيات.

إلى جانب كل هذه الأمور الواردة أعلاه، حُدد قانون الأسفار المقدسة، وتقرر إعداد ترجمة رسمية للكتاب المقدس، بالاستناد إلى الترجمة اللاتينية الشائعة التي قام بها القديس هيرونيموس (بيت لحم 390 - 405) وحددها البابا سِكتُس الخامس (Sixte Quint) 1590 وصححها إقليمنطس الثامن 1592.

وحرّر التعليم المسيحي (1566) وكتاب الفرض (1568) وكتاب القداس الروماني (1570) ومجموعة قوانين شرع كنسي أُقدم عليها على عهد بيوس الخامس وأعلنها غريغوريوس الثالث عشر. وتم إصلاح الإدارة البابوية الرومانية وأسست المدارس الإكليريكية والثانويات.

كان لأكثر تلك الإصلاحات تأثير مباشر في الشرق المسيحي خلال القرن اللاحق، بواسطة المرسلين

والإكليروس الماروني الذي تخرج من المدرسة المارونية في روما.

بعد هذا المجمع كشف غريغوريوس 13 الإرساليات والسفارات البابوية وأصدر مجموعة الشرع الكنسي الذي أقدم عليه بيوس الخامس. وبرز الرهبان اليسوعيون مع جامعتهم الغريغورية التي ألقى فيها أشهرهم، ولا سيما الإيطاليين والإسبانيين، تعليماً ممتازاً. ولقد أصبحت هذه الجامعة أشهر جامعة كاثوليكية في الكنيسة، ولا تزال إلى أيامنا هذه تخرّج عدداً كبيراً من أساقفة العالم كله. أما الرهبان الدومينيكان فقد رقّيت مدرستهم إلى جامعة سمّيت «الجامعة الملائكية».

لقد أسسّ أو أعاد تنظيم العديد من المدارس، المعهود بها عموماً إلى اليسوعيين، لكي يُخرّج منها الكهنة المعدّون إلى البلدان البروتستنتية: وهي

- المدرسة الجرمانية.
- المدرسة المجرية.
- المدرسة الإنكليزية.

وكذلك بالنسبة للكنيسة الأرثوذكسية، فقام البابا غريغوريوس 13 بعمل دبلوماسي نشيط جداً حتى بلاد روسيا، مؤسساً في الوقت نفسه المدرسة اليونانية.

وقد قصدت روما نخبة الإكليروس الأوروبي للتخرج منها وحصل الباباوات على لاهوتيين بارزين أقاموا عندهم.

ج - الراهب جان باتيشطا إليانو والكنائس الشرقية لاسيما المارونية

(1) - الرحلة في إطارها التاريخي

بغية أخذ فكرة واضحة عن هذه الرحلة إلى ديار الموارنة، يجب العودة إلى الاتصالات اللاتينية السابقة، مع الكنيسة المارونية.

تعود هذه الاتصالات إلى القرن الثالث عشر، عندما كان الرهبان الفرنسيسكان القاطنين آنذاك في القدس، الوحيدين الذين اتصلوا بالموارنة في جبل لبنان، بعدهم أتى الرهبان اليسوعيون لتكملة هذه الاتصالات اعتباراً من نهاية القرن

السادس عشر[1]. ويقال إن اتصال البابوية بالموارنة يعود إلى حقبة الصليبيين في المشرق، في نهاية القرن التاسع (1099)[2]. «من إحدى نتائج الحملات الصليبية على الشرق، فتح طريق روما أمام الموارنة... بعد انقطاع طويل بينهم وبين الكرسي الرسولي منذ القرن الثامن...»[3].

فيما يخص الاتصالات التي أجريت بين الموارنة والكرسي الرسولي، خلال الفترة الزمنية الممتدة من القرن الثاني عشر إلى القرن السادس عشر، سنكتفي بسرد أهمها:

- في العام 1215، بعث البابا إينوسون الثالث (Innocent III) (1198 - 1216) إلى البطريرك الماروني أرميا العمشيتي (1199 - 1230)، براءة بابويه يفرض فيها على البطريرك أن يتبع وينفذ كل تعاليم الكنيسة الرومانية المفروضة على اتباعها المؤمنين فيما يخص: المعمودية، سر الميرون والمناولة. وفي نفس البراءة يمنحه درع التثبيت[4].

- في السنة 1256، وبعد مجمع ليون الأول (1245) (Lyon)، كلّف

---

(1) L'Eglise Maronite d'après le voyage du Mont Liban de Jérome Dandini, (1596-1597) - Essai de lecture Historique - Théologique - Mémoire presentée par Elias Hanna, Lyon, 1991, p.5.

(2) منذ تأسيسها كانت الكنيسة المارونية على اتصال بالكرسي الرسولي. والبرهان على هذا، الرسالة التي بعثها رئيس الرهبان الموارنة في سوريا، إسكندر، إلى البابا هورميسدا (HORMISDA) في العام 517، واصفاً له مجزرة الـ 350 راهب ماروني، التي نفذها اليعاقبة. بالمقابل لا يوجد أية وثيقة تخبرنا عن العلاقات المحتملة بين الكنيسة المارونية والكرسي الرسولي، بين القرن السادس والقرن العاشر، وذلك بسبب الفتح العربي الذي اجتاح بلاد الشام.

(3) ديب، بطرس، مونسنيور، الكنيسة المارونية، بيروت 1973، ج1، ص 77.
- Cf. Feghali Joseph, Histoire du droit de l'Eglise Maronite, T1, letouzeyet Ané, Paris 1962, p 25 - 29.

(4) Feghali, op. cit., p. 28 - 28.

البابا إينوسون الرابع، الأخ لورنزو دا أورتي (Lorenzo Da Orte) من الرهبنة الفرنسيسكانية، القيام بإرسالية لدى البطريرك الماروني سمعان[1].

- بمناسبة انعقاد المجمع الفلورنسي عام 1437، بعث البطريرك الماروني حنا الجاجي (1445) مع رهبان فرنسيسكان رسائل إلى البابا أوجين الرابع. وقد رد عليه هذا الأخير ببراءتين الأولى عام 1439 والثانية عام 1441. هاتان البراءتان أرسلتا في الوقت الذي كانت العلاقات منقطعة بين الكنيسة المارونية وروما، منذ عام 1291، السنة التي سقطت فيها آخر إمارة صليبية ووقعت بلاد الشام بأيدي المماليك حتى عام 1516. هذا الانقطاع في الاتصالات مع روما كان له فائدة، بأن أبعد خطر اللتننة عن الكنيسة المارونية (latinisation) وسيئة، هي احتمال وقوع الموارنة بالإلحاد، عقب وصول اليعاقبة إلى لبنان[2].

- خلال القرن الخامس عشر استؤنفت الاتصالات بين الموارنة والبابوية، دائماً بواسطة رهبان الفرنسيسكان في القدس وذلك حتى عام 1571. بين هذه الوساطات، نذكر: براءة البابا نقولا الخامس في عام 1447 وبراءة البابا كاليكست الثالث في عام 1455، وبراءة البابا بولس الثاني عام 1469[3].

- خلال القرن الخامس عشر، وقبل أن تقرر روما إرسال رهبان يسوعيين لتنفيذ مهمات لدى الموارنة، عيّن البابا ليون الخامس في عام 1515،

---

(1) المرجع السابق نفسه.

(2) Feghali, op. cit., p. 32 - 33.

- فهد، بطرس، علاقات الكنيسة المارونية مع الكرسي الرسولي، لبنان، 1961، ص11.

(3) ذكر في هذه البراءة ولأول مرة، لقب «أنطاكية» الذي يحمله البطريرك الماروني، منذ تأسيس البطريركية المارونية في القرن السابع حتى يومنا هذا. (بطريرك أنطاكية وسائر المشرق).

الأب مارك دي فلورانس (Marc de Florance)، زائراً رسولياً لدى الموارنة. وفي عام 1526، حثّ البابا كليمون السابع (Clement VII) الموارنة بالمحافظة دون مساس على الوحدة مع روما التي قامت على أيام البابا إينوسون الثالث وأوجين الرابع. أخيراً وقبل ختام المجمع التريدينتين، 1562، كتب البابا بيوس الخامس إلى البطريرك الماروني موسى سعاده، يلفت نظره لتعليمات البابا أوجين الرابع وليون الخامس، حول المسائل اللاهوتية التالية: زياح الروح القدس، الطبيعيتين والمشيئتين والإجراءات المكملة والوحدة في شخصية السيد المسيح، ومركز المطهر والأسرار السبعة[1].

ومنذ ذاك الحين، أصبحت هذه المسائل اللاهوتية موضوعاً للعقيدة الإيمانية شرطاً واجباً كي يثبّت البابا انتخاب البطريرك الماروني الجديد ويرسل له «درع الثتبيت».

بالرغم من تدخلات الكرسي الرسولي المتكررة ومن تعليماته المتلتننة، بقيت القوانين والطقوس المارونية على طابعها الشرقي السرياني.

«هذه الزيارات لم تأتِ ثمارها المشتهاة: فبعد سفر هؤلاء القصاد الرسوليين وتركهم جبل لبنان، يعود الموارنة إلى تقاليدهم وعاداتهم»[2].

(2) - بعثة إليانو وراجو (Raggio) الأولى (1578 - 1579)

مع البعثات اليسوعية التي ابتدأت مع إيليانو وراجو في العام 1578، ابتدأ عهد جديد من الاتصالات بين الكنيسة المارونية والكرسي الرسولي.

حقيقة، إن البعثات الثلاث التي نفذها اليسوعيون لدى الموارنة، بين 1578 و 1596، بما فيها بعثة دنديني (Dandini) كانت متكاملة ولها هدف

(1) Feghali, op. cit., p. 32 - 33.

(2) Elias, Hanna, op. cit., p8.

واحد: لماذا استبدل الكرسي الرسولي القصاد الرسوليين الفرنسيسكان لدى الموارنة بالقصاد الرسوليين اليسوعيين، ذاك أن هؤلاء كانوا يعملون بكل ما لديهم من قوة وإيمان ودون تردد لتحقيق الإصلاح الكنسي المعاكس.

الجدير ذكره أن الشرق في ذلك الزمن، لم يكن له مكانة كبرى في النهضة التي عمت أوروبا. فعزم البابا غريغوريوس الثالث عشر على إرسال أحد ممثليه (مفوض رسولي) لمباشرة التفاوض مع الكنائس الشرقية.

وُلد إليانو من أبوين يهوديين في العام 1530، في مدينة الإسكندرية في مصر، كان من خلال والدته، حفيد الحاخام اليهودي إلياس ليفيتا (Elias Levita) الشهير، فسمي «إلياس» على اسم جده. توفي والدا إلياس باكراً، فربي في كنف جده المقيم في إيطاليا والذي كان واحداً من أشهر اليهود في القرن السادس عشر. بعد موت جده عام 1549، عاد إلياس إلى مصر ثم ذهب إلى فلسطين وجال فيها من أقصاها إلى أقصاها، وعلم أن شقيقه الذي بقي في البندقية اعتنق المسيحية. فأخذ على عاتقه العمل على إعادته إلى الدين اليهودي، دين أجداده. وبدلاً من إقناعه بالعودة إلى دينه الأصيل، أصبح هو مسيحياً. وتلقى المعمودية في عام 1551، تحت اسم يوحنا المعمدان ثم ترجم اسمه «إلياس» إلى الإيطالية فأصبح «إليانو». انضم إلى الرهبنة اليسوعية وقبل في زمن القديس إغناطيوس، واختار اسم «جان باتيستا إليانو».

كان إليانو على معرفة تامة بالشرق، وكان يقرأ العربية والكرشونية[1] ويمكن السريانية. كان صارماً، قاسياً، وعميق التقوى. يعمل بروح الكرسي الرسولي ويريد أن يصبح المدافع الأكبر عن الكنيسة الرومانية. لقد اعتبر إليانو واحداً من القصاد

(1) اللغة العربية مكتوبة بالأحرف السريانية.

الرسوليين الأكثر نشاطاً فيما خص لتننة الكنيسة المارونية.

أُرسل إليانو أولاً إلى مصر في عام 1561، بصحبة الأب خريستوف رودريكيز. لكن تلك الرحلة لم تؤد إلى تقارب مع الكنيسة القبطية، فعاد إليانو إلى البندقية عام 1563، وأخذ يعلّم العربية والعبّرية في المدرسة الرومانية حتى عام 1577، بناء على رغبة البابا بيوس الرابع. ومن المحتمل أن إليانو كان يعرف اللغة السريانية كما سبق وذكرنا.

كُلّف إليانو بمهمتين رسوليتين لدى الموارنة في جبل لبنان: الأولى ابتدأت في آذار 1578 وانتهت في 8 حزيران 1579. وكانت البعثة مؤلفة من راهبين يسوعيين، المذكور الأب إليانو والأب توما راجو (Thomas Raggio)

استقبل الموارنة البعثة باحتفال كبير حضره البطريرك ميخائيل الرزي وإلى جانبه المطارنة والكهنة وأعيان الموارنة والعدد الكبير من الأهالي، وذلك لإظهار محبة الموارنة واحترامهم للكرسي الرسولي والبعثة التي أرسلها إليهم.

نفذت هذه البعثة مهمتها على الشكل التالي:

- في الخطوة الأولى: بما أن إليانو لم يكن ضليعاً في اللغة السريانية، لذلك لم يميز بين الكتب الدينية المارونية ومثيلاتها اليعقوبية، فحرق العدد الكبير منها دون أن يدري مغبة عمله هذا.

- في الخطوة الثانية: جال إليانو في بلاد الموارنة، ومعه رسالة موقعة من البطريرك وبصحبته، المطران سرجيوس الرزي، شقيق البطريرك ميخائيل، وكاهن ماروني نجهل اسمه. فحاول معرفة العادات والتقاليد والطقوس والأعراف المارونية. وقد سجل كل مشاهداته وملاحظاته على دفاتر ثلاثة؛ الأول دوّن عليه التجاوزات والأخطاء؛ والثاني، الصعوبات التي لا يمكن إيجاد حل لها إلا بقرار من الحبر الأعظم؛ والثالث الإصلاحات التي يجب تحقيقها.

- في الخطوة الثالثة: لدى انتهاء البعثة من هذه الجولة، عاد إليانو وتقدم من البطريرك في قنوبين (المركز البطريركي)، عارضاً عليه وعلى المطارنة أن يضعوا تواقيعهم على أوراقٍ بيضاء[1]، واعداً إياهم بأنه لن يملأها إلا بالأشياء الحسنة والجيدة والمفيدة لأمتهم المارونية. فبعد ترك بلاد الموارنة والوصول إلى طرابلس، استغلت البعثة «التوقيع على بياض» ليدوّنوا عليها الكثير من الأخطاء والبدع الإلحادية الخطيرة. وقد استفاد القاصد الرسولي من هذه التواقيع ليرفع تقريره، باسم البطريرك الماروني إلى السدة البطرسية في روما، تحت عنوان «أسئلة وأجوبة»[2]، وفي نفس الوقت نسب أنها تمت في مجمع ديني عقد في عيد الفصح عام 1578، بينما المجمع لم يعقد أصلاً، فالعثمانيون كانوا يرتابون من الأغراب عامة ومن كل ما يأتي من روما خاصة، لذلك منعوا عقد هذا المجمع.

- في الخطوة الرابعة: عادت البعثة إلى روما ورفعت تقريرها المفصّل عن مهمتها في بلاد الموارنة إلى البابا[3] ومن المحتمل أن إليانو استفاد من هذا الظرف ليعرض على البابا، باسم بطريرك الموارنة، مجموعة من الأسئلة تلامس العقيدة الإيمانية والطقوس الدينية مثل الأسرار السبعة، والمجامع السبعة الأولى وقضايا أخرى متعلقة بأوامر الطاعة.

(3) - بعثة إليانو الثانية (1580 - 1582)

نفذ إليانو مهمته الثانية، يرافقه الأب اليسوعي حنا المعمدان برونو (Jean - Batiste Bruno)، بين منتصف

(1) التوقيع على بياض ."Blanc - Seing"

(2) إنها نصوص وضعهاإليانو نفسه تحتوي على أسئلة نسبها إلى البطريرك الماروني ميخائيل الرزي، وإلى أجوبة عليها، نسبها إلى البابا غريغوريوس الثالث.

(3) CHEIKHOL «les Maronites et la compagne de Jésus oux XVI^e et XVII^e siècles» dans la revue Al-Machriq, 1914, p, 758 - 763.

أيار 1580 والسابع من حزيران 1582.

وكما حصل في المرة الأولى، فقد استقبل، أفراد البعثة استقبالاً احتفالياً، من قبل البطريرك والإكليروس وأعيان الموارنة والمؤمنين. بداية أعلن القاصد الرسولي، رسمياً، قرارات البابا الإصلاحية، الموجهة إلى الموارنة. ثم عرض أمام الموجودين الهدايا المرسلة من قِبَل البابا غريغوريوس الثالث عشر والكردينال كارافا (Caraffa)، حامي الموارنة، وهي كناية عن: زخارف وحلى كنسية، وكؤوس، وبرشان، ومسابح[1]، والقداس اللاتيني والقوانين والمقررات الصادرة عن المجمع التريدنتيني، مترجمة إلى اللغة العربية. ثم بعدها عمل إليانو على عقد مجمع ماروني في قنوبين، مركز البطريركية، من 15 إلى 17 آب 1580، وصدر عن هذا المجمع مقررات، كان إليانو قد استمدها من مقررات المجمع التريدنتيني وترجمها إلى العربية[2].

شيئاً فشيئاً، اتخذ مشروع إليانو شكله في تفكيره: بما أن الكنيسة المارونية هي الكنسية الكاثوليكية الوحيدة في الشرق، يجب أن تلقى مساعدة على أن تكون مركز الكثلكة الشرقية. ولكن، بسبب الظروف العسيرة التي تعيش فيها، تخيل إليانو فكرة عبقرية، تبناها البابا غريغوريوس الثالث عشر بمشقة، وهي إنشاء مدرسة مارونية في روما، على غرار المدارس التي أنشئت لبلدان شمال أوروبا، لتخريج الإكليروس الشبان.

وبالتوازي، بحسب قرارات المجمع التريدنتيني، قرر أن يهذب الكتب الطقسية واللاهوتية، من

(1) كانت المسبحة شيئاً جديداً بالنسبة للموارنة. وقد أوصى الكردينال كارافا البعثة، بإدخال، أولاً، في الأديرة صلاة المسبحة ومن ثم إنشاء الأخويات من بين المؤمنين الموارنة.
- Elias, Hanna, op. cit., p12.

(2) Feghali, op. cit., p, 103 - 104.

التلميحات إلى المونوفيزية، لأن السريان اليعقوبيين كانوا لا يزالون يمثلون خطراً في جبل الموارنة.

وأخيراً وقبل عودته إلى روما، جال وللمرة الثانية، بلاد الموارنة، لإعلان مقررات المجمع الماروني الذي دعا إليه في قنوبين.

دامت رحلته سنة كاملة، وزّع خلالها مئتي نسخة من كتاب قوانين المجمع الماروني، وحرق العديد من الكتب الكنسية المارونية، علاوة على هذا، استعد لإرسال أربعة شبان موارنة إلى روما، كي يكونوا النواة الأولى للمدرسة المارونية التي ستنشأ مستقبلاً عام 1584.

والجدير ذكره، أنه عندما وصل إليانو إلى الشمال، لا سيما إلى منطقة حصرون، لقي شباناً عديدين يعيشون في ظروف عسيرة جداً، بسبب الاحتلال العثماني. وما لبث أن ذهب إلى قبرص، فوجد فيها جماعة مارونية تتمتع بحرية أكبر بكثير، وكانت متأثرة بالحضارة الهلّينية، وتتكلم اليونانية، ولها إلمام قليل باللغة العربية والسريانية. هذا وإن إليانو رجع بعدد من الوثائق، إلى إيطاليا، حيث حرر تقريره عن الأوضاع في الشرق.

يمكننا القول، إن المهمتين اللتين قام بهما إليانو في بلاد الموارنة أدتا إلى أمور ثلاثة:

- إتلاف شبه كامل لكتب الطقوس الدينية الموروثة أي كتب اللاهوت للكنيسة المارونية.

- تطبيق مقررات المجمع التريدنتيني.

- إنشاء المدرسة المارونية في روما.

وقبل فتح المدرسة المارونية، جيء إلى روما بشبان من جبال لبنان الشمالية أو من قبرص، كانوا لا يزالون في سن المراهقة، فأخذوا يدرسون في روما ويتدربون على جميع المواد الجديدة، في الفنون والعلوم، وكانت روما آنذاك في عز النهضة، ويتعلمون اللغات، لا سيما اللاتينية والإيطالية،

ويحسّنون معرفتهم بالسريانية والعربية الفصحى، التي أصبحت لغة مهمة وأساسية عند المسيحيين. لقد توصل بعضهم إلى درس اليونانية أو الفرنسية. وتابعوا دروس الفلسفة واللاهوت في الجامعة الغريغورية، وانفتحوا على ثقافة النهضة الأوروبية.

وعاد إليانو إلى مصر (15825 - 1585) ليحاول مرة أخرى الاتحاد بالكنيسة القبطية، وقد شجعه على ذلك حضور البطريرك السرياني «اليعقوبي» (ابتداء من 1578) إغناطيوس نعمة الله في روما. ولكن كل ذلك انتهى بالفشل، بسبب موقف الأوساط الرومانية البليد إلى حد ما. ومما يؤسف له، فإن البطريرك القبطي توفي، مسموماً على ما يبدو، عشية توقيعه الاتحاد بروما. أما في نظر الأقباط فإن هذه النهاية المأساوية كانت من العناية الإلهية التي أنقذت الكنيسة القبطية من ذلك الاتحاد الذي كان عاراً في نظرهم. أما إليانو فإنه توفي في روما في 3 آذار (مارس) 1589.

د - المدرسة المارونية في روما (1584)

إن المشروع الذي أعدّه إليانو بالاستناد إلى ما راقبه كان يقوم على تنشئة الموارنة، الذين هم كاثوليك، في روما. سبق له في 1578 أن استصحب إلى روما إكليركيين مارونيين حضرا دروس المدرسة المارونية، وقد خلفهما ما بين 1581 و 1584، وهو التاريخ الذي قام فيه البابا غريغوريوس الثالث عشر، بتكريس المدرسة المارونية في روما. أنشئت هذه المدرسة على غرار الكلية اليونانية (التي أسسها البابا نفسه)، والمدرسة الجرمانية أو المدرسة الإنكليزية. وعُهد بها أيضاً إلى اليسوعيين.

في روما، انبهر بالغرب أولئك الموارنة الآتون من جبل لبنان أو من قبرص، والذين نعرف أسماءهم وأعمارهم. انبهروا بالثروة الفكرية والفنية والروحية التي تراءت لعيونهم. كانت إيطاليا قلب النهضة الأوروبية، فكان الناس يأتون من أوروبا كلها ليتتلمذوا للإيطاليين.

ولذلك كان أولئك الإكليريكيون الشبان يندفعون بكل قواهم إلى تلقفّ كافة مواد التعليم، دارسين الرياضيات والعلوم، والجغرافيا والتاريخ، ولا سيما الفلسفة واللاهوت، وعلم الأخلاق والشرع الكنسي، والتفسير الكتابي واللغات. وكانوا يعرفون العربية والسريانية، فأخذوا يدرسون العبرية واليونانية، بغض النظر عن اللغات الأوروبية الحية، كالإيطالية والإسبانية أحياناً فكانوا سرعان ما يصبحون عباقرة فتيان [1].

(1) - طبع الكتب العربية: مجموعات صلوات

كان أولئك الإكليركيون الموارنة الفتيان، يحتاجون إلى كتاب صلوات يومية في لغتهم. فمن الراجح أن إليانو قد ألّف مثل هذا الكتاب قبل وفاته. فلقد طُبع بروما في عام 1586 مجموعة صلوات متنوعة، تعكس عقليته. كان هذا الكتاب فريداً يحتوي على صلوات سريانية مقتبسة من مؤلفات القديس أفرام السرياني، إلى جانب صلوات أخرى من التقليد الماروني، وعن صلوات لاتينية، كطلبة العذراء، ولا سيما، طلبة القديسين، وعلى صلوات لأيام الأسبوع السبعة، مقتبسة من مخطوط لم يطبع للاهوتي القبطي مؤتمن الدولة ابن العسال، كان قد ألفه العام 1260. طُبع هذا الكتاب بالحرف الكرشوني.

لم يكن ذلك الكتاب أول كتاب طُبع بالعربية. إذ إن المطبعة العربية انطلقت من إيطاليا. وإن أول كتاب عربي طُبع في العالم، كان كتاب صغير بعنوان كتاب السواعي طُبع في فانو العام 1514.

وفي السنة 1516، طُبع أول كتاب مزامير متعدد اللغات، على أن يلحقه بالكتاب المقدس كله. وكان النص يستند إلى مخطوطين اشترى الأول من مصر والآخر من سوريا. واستمرت تلك الظاهرة بعض الوقت، علماً أن الكتب العربية الأولى كانت تلبّي حاجات مسيحيي الشرق الروحية.

---

(1) دور المسيحيين الثقافي في العالم العربي، ج2، دار المشرق، بيروت، ص 27 - 28.

فمن الواضح إذاً أن الكتب العربية الأولى المطبوعة كانت من عمل الغربيين، وكانت تلبي حاجتين: إما مساعدة مسيحيي الشرق الروحية، وإما خدمة العلماء المستشرقين كما تشهد على ذلك كتب ابن رشد الطبية أو كتب الصرف والنحو التي طُبعت في القرن السادس عشر.

(2) - عمل نَقْل

إن العديد من أولئك الكهنة الشبان، عند عودتهم إلى حلب أو إلى لبنان، اجتهدوا في نقل كل ما حصلوا عليه في روما، إلى أبناء وطنهم، من المواعظ والتعليم اليومي. ولقد ادخلوا صِيَغ تديُّن وخدمة رسولية جديدة، وجدّدوا الوعظ تماماً، وشجعوا الحياة الرهبانية، بتحديثها وتكييفها على الحياة الرهبانية الغربية. فأصبحت الأديرة مراكز إشعاع روحي ثقافي.

وأخذوا شيئاً فشيئاً ينقلون الكتب التي تعلموها في روما، من اللاتينية إلى العربية، وأحياناً من الإسبانية أو الإيطالية إلى العربية، علماً بأن اللغة الأوروبية التي كان المُرْسلون يتكلمون بها كانت الإيطالية في تلك الأيام. ففي حلب، حتى ولو كانت الجماعة اليسوعية مؤلفة من مُرْسلين فرنسيين، كانت الإيطالية لغة المراسلة مع روما.

وكان بعض الموارنة ينقلون الموجزات التي استعملوها في روما، أو المؤلفات الروحية التي فضلوها.

وعلى الصعيد الفكري، كانوا يسلكون هم أيضاً الطريق التي سلكها المفكرون المسيحيون في بغداد في القرنين التاسع والعاشر: فينقلون، ثم يشرحون، وأخيراً يُنتجون مؤلفات أصلية مستوحاة من الغرب. فنُقلت جميع المقالات المهمة من اللاتينية إلى العربية، كـ **الخلاصة اللاهوتية** التي وضعها القديس توما الأكويني، والمقالات المسيحية، إلخ. ونُقل أيضاً شرح الكتاب المقدس الضخم، الذي حققه اليسوعي الهولندي قرنيليوس الحجري (a Lapide). وذلك العمل الذي أنجزته «المطبعة الكاثوليكية» في بيروت يضم ما لا يقل عن خمسة آلاف صفحة بالعربية.

وهناك كاهن ماروني من بلدة، تولا القريبة من اهدن يُسمى بطرس التولاني (1657 - 1754)، نقل إلى العربية كل الفلسفة التوماوية، أي فلسفة أرسطاليس الذي أعاد النظر فيها القديس توما الاكويني. هذا وإنّ الكاهن المذكور قد نقل إلى العربية عدداً كبيراً من المقالات التي ترقد إلى اليوم في مجموعة مخطوطات بكركي، ودير الكريم، وحلب، إلخ. ففي حلب عاش أحد كبار كتاب النهضة، وهو جرمانس (أو جبرائيل) فرحات الذي سيأتي ذكره لاحقاً.

(3) - المدارس والمطابع

استغرقت تلك الحركة قرناً ونصف قرن. أنشأ خلالها الموارنة المدارس الأولى ذات الطراز الغربي. ولكنهم لم يكتفوا بعد ذلك بدرس القيل من السريانية انطلاقاً من الإنجيل أو المزامير، بل كانوا يعلّمون في تلك المدارس، التاريخ والجغرافيا، والرياضيات والفيزياء، والصرف والنحو والبلاغة، واللغات القديمة والحديثة، والمنطق والفلسفة، إلى جانب الدين.

وفي الوقت نفسه، حاولوا أن يُدخلوا، منذ الربع الثاني من القرن السابع عشر، المطبعة العربية التي حبّذوها في أوروبا. وفي الشرق الأدنى، طُبع الكتاب الأول في قزحيا، بالكرشونية، لا بالأحرف العربية. سبق لنا أن أشرنا إلى أن أُناساً قليلين من الموارنة كانوا مطّلعين على الكتابة العربية، وأن أغلب رجال الإكليرس كانوا يكتبون العربية بالكرشونية.

في الواقع، كان علينا أن ننتظر نهاية القرن السابع عشر، حتى نرى مطبعة عربية في دير مار يوحنا الصابغ بالخنشارة، في كسروان آنذاك، علماً بأن ذلك الدير كان للملكيين الكاثوليك. وكان الحصول على تلك المطبعة ثمرة تعاون بين الأب فروماج اليسوعي والشماس عبد الله زاخر. والجدير بالذكر أن هذه المطبعة قد رُمّمت قبل قليل وعُرضت في معرض الكتاب في فرانكفورت. وقبل أن نجد كتباً طُبعت في العربية والعبرية في

العالم العربي، كنا نجدها في اسطنبول. يفتخر المسيحيون بكونهم أنشأوا المطبعة الأولى في العالم العربي، فأدخلوا الحداثة إلى بلادنا.

أما في مصر فإن الجنرال نابليون بونابرت الفرنسي هو الذي، مطلع القرن التاسع عشر، أدخل المطبعة العربية إلى القاهرة (في بولاق)، فأخذ العالم الإسلامي يكتشف الكتاب المطبوع.

* * *

الفصل الخامس

النهضة العربية المسيحية من القرن السابع عشر وحتى بداية القرن العشرين

1 - الإرساليات المسيحية في الشرق بروز اليقظة الفكرية (1230 - 1800)

1 - توطئة

لا يُختصر تاريخ الإرساليات في أنه جزء من تاريخ الغرب السياسي، بالرغم من أن الإرساليات استفادت كثيراً من نظام الامتيازات بين العثمانيين والأوروبيين منذ القرن السادس عشر، وخصوصاً اتفاق فرنسا والأتراك (1604). ولا توصف الإرساليات بأنها نوع من الاستمرارية للحملات الصليبية، التي كان لها أهداف سياسية - عسكرية، مع أن الإرساليات اهتمت بحراسة الأماكن المقدسة في فلسطين وبتعزيز وجود المسيحية في الشرق.

12 - الإرساليات الكاثوليكية قبل عام 1576 وبعده حتى عام 1622

في العام 1230، وصل الرهبان

الفرنسيسكان إلى عكا ولم يغادروها رغم زوال المملكة الصليبية في العام 1291، بل استمروا في القدس بين السنوات 1295 و1342. ويقال إن تدخل روبير، ملك نابولي لدى سلطان مصر، حقق لهم الحصول على العلّية في القدس. وفي عام 1342، أكد البابا إكليمنضوس السادس في براءته، أن الرهبان الفرنسيسكان يتحملون أعباء حراسة الأماكن المقدسة وإدارة شؤون الجماعة اللاتينية في القدس وفي كل المشرق، فحلوا في بيروت بين السنوات 1345 و1571، وفي حلب في السنة 1571، وفي طرابلس ودمشق.

لقد لعب الفرنسيسكان دوراً بارزاً في تقوية أواصر العلاقات بين الكنيسة المارونية وروما. فالأخ الفرنسيسكاني «خوان» هو الذي حمل درع التثبيت إلى البطريرك يوحنا الجاجي في العام 1439. وقد ساهم راهب فرنسيسكاني آخر هو فرّا غريغون بين 1455 و 1469 في تثبيت «أمانة الكنيسة المارونية الثابتة تجاه الكرسي الرسولي». وهو الذي أوفد إلى روما جبرايل بن القلاعي (+1516) للدراسة. وقد عاد عام 1493 متمكناً من اللغة اللاتينية حيث نقل مؤلفات اللاهوت والتاريخ الكنسي والحق القانوني إلى اللغة العربية. وفي عام 1515، زار راهبان، فرًّا خوان، وفرنسيسكو سوريانو، بلاد الموارنة لتقليد البطريرك سمعان الرابع الحدثي درع الثبيت[1].

كما أرسل البابا مرسلين إلى الكنائس الشرقية الأخرى، كالفرنسيسكاني البير دو سرزيانو إلى الأقباط عام 1440 واليسوعيين إليانو وروودريغز إلى الأقباط عام 1561. وكان الدومينيكان قد توجهوا منذ القرن الثالث عشر إلى أرمينيا حيث ساهموا في تأسيس رهبانية الأخوة الموحدتين بهدف تعزيز الروابط بين كنيسة أرمينيا والكرسي الرسولي، إلا أن هذه الرهبنة

(1) Hajjar, J. Les Chrétiens uniates au Proche Orient, Dar Tlass, 1996, p.192.

اندثرت في القرن الخامس عشر[1].

والـلافت للنظر أن الأب إليانو، الـذي، أتـى بـلاد الـموارنـة كـقـاصـد رسولي، وقد تكملنا عن مهمته سابقا، في الوقت الذي كان فيه الشرق، حقق اتصالاً بالروم الملكيين والسريان في حلب. وفور عودته إلى روما أُرسل مرة ثانية موفداً إلى الأقباط في السنة 1582. وفي السنة 1583، انطلق القاصد الرسولي ليوناردس أبيل، برفقة اثنين من الرهبان اليسوعيين، نحو السريان الملكيين لدفع موضوع الوحدة إلى الأمام. وفي السنة نفسها حلّت الرهبنة اليسوعية في اسطنبول، إلا أن الرهبانية الكبوشية أخذت مكانها، ثم عادت الرهبانية اليسوعية نهائياً إلى اسطنبول في مطلع القرن السابع عشر 1609). وحلول اليسوعيين في اسطنبول فتح المجال أمامهم للدخول في حوار مباشر مع السلطة المسيحية الأرثوذكسية المحلية، المتمثلة بالبطريرك ناوفيطس الثاني[2].

أما الرهبانية الكرملية فإنها أُرسلت إلى بلاد فارس حيث حلّت هناك في السـنـة 1592، بـعـد أن رفـع الـرئـيس الإقليمي للآباء الكرمليين مذكرة شهيرة إلى البابا إكليمنضُس الثامن تحت عنوان «اتصال الخلاص إلى الشعوب كافة» وهي تتضمن مخططاً كاملاً لنشر الإيمان الكاثوليكي في البلدان غير الكاثوليكية. وفي السنة 1596، تمّ إيفاد بعثة ثالثة إلى الموارنة مؤلفّة من الراهبين اليسوعيين: دنديني وبرونو[3] وكان ذلك تأكيداً لدخول الكنيسة المارونية في علاقة وطيدة، على مختلف المستويات الثقافية والليتورجية واللاهوتية، مع الكرسي الرسولي.

---

(1) Histoire et Institutions des l'Eglise Arménienne, Imprimerie Catholique, 1965, p. 294-296.

(2) Hajjar, op.cit, p. 219.

(3) Elias Hanna, op.cit., p. 23-24.

13 - طلائع النهضة

في مطلع القرن السابع عشر، ما بين 1620 و 1625، وصل المرسلون الأول إلى حلب: الفرنسيسكان والكرمليون والكبوشيون واليسوعيون. لقد كانت الجماعة المسيحية في حلب أهم مما كانت عليه في مكان آخر. وكانت حلب مركزاً دينامياً في التجارة والثقافة على السواء، وأهم من بيروت أو طرابلس اللتين كانتا مدينتين صغيرتين. وفضلاً عن ذلك، كانت لحلب فوائد جغرافية، نظراً إلى قربها من الباب العالي في اسطنبول، وعلى طريق الموصل التي كانت تشق طريقاً إلى العراق ومن هناك إلى الهند. كان لحلب إذاً موقع مركزي يمكّنها من ارسال إشعاع داخلي نحو دمشق وإشعاع أبعد نحو العراق والهند.

كان المرسلون يستميلون الأهالي، وإن وجب على أكثريتهم أن يتكلموا بلغة عربية تقريبية. فكانت المواعظ تلقى أحياناً بالإيطالية فيقوم مترجم ماروني، تخرّج من مدرسة روما بارتجال ترجمة عربية.

كان الموارنة كناية عن رأس جسر بين هؤلاء المُرسلين والطوائف الشرقية الأخرى غير الكاثوليكية: الروم، الأرمن والسريان. انتشرت تلك الحركة الإرسالية بين الطوائف الشرقية في حلب، ومنها المراكز الكبيرة: دمشق، وصيدا وطرابلس. وأسسوا في المدن الكبرى المدارس، التي كانوا يديرون شؤونها أو بواسطة موارنة يصمّمون تدريجياً على اتباع هذا النهج.

في النصف الثاني من القرن السابع عشر، ظهرت عدة رهبانيات شرقية مستوحاة من المرسلين، أنشأها حلبيّون، وأقاموا في مناطق نائية من جبال لبنان ولا سيما في كسروان، في مأمن من السلطة المدنية. وكانوا جميعاً يستوحون في آن واحد من التقليدين الشرقي والغربي.

أ - طبع الكتاب المقدس بالعربية

أنشأت روما لجنة برعاية مجمع انتشار الإيمان. وطُلب إلى أسقف دمشق الماروني، سركيس بن موسى الرزّي، شقيق البطريرك آنذاك يوسف

الـرزي (1596 - 1908)، أن يـشـرف على المشروع، فعمل في روما حتى وفاته في 29 آب 1638. وبعد نصف قرن من العمل الدؤوب والمراجعات المتواصلة، أبصر النور في عام 1671، أجمل مؤلَّف باللغة العربية في ذلك الزمن، الترجمة الأولى للكتاب المقدس بكامله، مطبوعاً بأحرف رائعة لاتينية وعربية، ومزيّنة برسوم منقوشة في الخشب.

ب - رجال العلم والثقافة في ظلال شعاع الحرية

كانت الأحوال في لبنان، على عكس ما كانت في غيره من البلاد العثمانية، مؤاتية للتقدم والتطور الفكري والثقافي والحضاري. فقد ضمن المسيحيون تحت حكم الأمراء، قدراً من الحرية لم يعرفه سواهم من رعايا السلطنة العثمانية. «إن لبنان على صغره ووعورة أرضه، يغصّ بالسكان، حتى وازت كثافتهم فيه أكثر المناطق الفرنسية ازدهاراً... كيف لنا تفسير مثل هذا الرخاء في أرض ضيقة؟ إنني لا أجد من سبب له، بعد التأمل والتفكير، إلا شعاع الحرية الذي يسطع هناك»[1]. وشعاع الحرية هذا كان يضمن سلامة الأرزاق والأعناق لا لرعايا الأمراء اللبنانيين وحدهم بل للزائرين والمقيمين الأجانب أيضاً، بمن فيهم السوّاح والمبشّرين والتجار والعملاء السياسيين. وهذا الانفتاح وهذه الحرية كانا سبباً سياسياً لنصارى بلاد الشام عامة ولبنان خاصة لتقبل أفكار الأوروبيين وطرائق عيشهم.

هذه الحرية سمحت بفتح معاهد للتعليم العالي في بعض الأديرة المارونية منذ 1624، حين أسَّس البطريرك يوحنا مخلوف أول معهد من هذا النوع في قرية حوقا، في جبة بشري. وأسَّس معهداً رهبانياً آخراً في قرية بقرقاشا. وعندما توفي هذا البطريرك عام 1633، توقف معهد

(1) Volney, Voyage en Egypte et en Syrie, Paris 1959, p.211.

حوقا، وبقي معهد بقرقاشا، الذي نُقل إلى جوار بشري، الوحيد من نوعه مدة قرن كامل.

في عام 1728، أسّس الأب بطرس مبارك، أحد خريجي المدرسة المارونية مدرسة جديدة في قرية عينطورا، في كسروان، وفي عام 1734 التحق الأب مبارك بالرهبنة اليسوعية، فوضع مدرسته تحت إدارة هذه الرهبنة. في عام 1773، حل البابا منظمة الآباء اليسوعيين وأغلقت عينطورا أبوابها. وفي عام 1834، أعاد الآباء اللعازاريين فتحها واستمروا في إدارتها حتى يومنا هذا.

ومما لا شك فيه أن الإرساليات حققت من الأعمال والمنجزات الشيء الكثير، في فترة قرنين من وجودها في الشرق حتى نهاية العقد الثالث في القرن التاسع عشر، حيث حدثت أمور مهمة تعد مفصلاً أساسياً في تاريخ الشرق السياسي والديني. ففي السنة 1832، هزم العثمانيون في قونيه، الجيش المصري الذي كان يقوده إبراهيم باشا، ابن والي مصر محمد علي باشا، وفي السنة 1834، أقرّت الآستانة بوجود الكنائس الكاثوليكية الشرقية، أي أقرت بحرية مسيحيي الشرق، عندما سلّم الباب العالي فرماناً إلى الكاهن الأرمني الكاثوليكي، آغوب تشوكوريان، نصّبه بموجبه رئيساً دينياً ومدنياً ومرجعاً لتلك الملل المعترف بها حديثاً. وفي تلك الفترة بالذات، اشتد ساعد تلك الكنائس وقويت شوكتها بعد أن أصبح مكسيموس الثالث مظلوم العائد من روما بطريركاً للروم الكاثوليك (1833). وركّز البطريرك يوسف حبيش سلطانه على الموارنة (1835) وثبّت البطريرك جروه قدرته في دفع عدد كبير من السريان إلى الاتحاد بروما (1828 - 1840) واستقرّت الأحوال كذلك عند الكلدان والأقباط الكاثوليك.

ج - جرمانس فرحات (1670 - 1732)

اندفع المسيحيون في تحرير كتب دينية، (لاهوتية وأخلاقية وليتورجية وروحانية إلى آخره)، وغير دينية (فلسفية، تاريخ وجغرافيا وأدب وشعر

وطب وفلك إلى آخره)، حول شخصية مركزية، جرمانس فرحات، فمهدوا من بعيد لنهضة القرن التاسع عشر.

كانت اللغة العربية، حتى منتصف القرن الثامن عشر، قد انحطت لدى السكان جميعاً ولا سيما المسيحيين، إلى مستوى متدن جداً، يعود ذلك إلى الانحطاط الثقافي العام وإلى نفوذ اللغة التركية العارم. فلم تعد العربية تُدرّس إلا في بعض الكتاتيب الإسلامية وفي جميع المراكز التي تخرج منها الأئمة (المشايخ) ولا سيما الأزهر بالقاهرة. إلى جانب كل هذا كانت اللغة العربية الفصحى قليلة الاستعمال. والبرهان على ذلك أننا إذا قرأنا كتاب «تاريخ الأزمنة» للبطريرك اسطفان الدويهي (1630 - 1704) والذي كان مؤرّخاً كبيراً، نرى أن لغته العربية ضعيفة للغاية. مع أنه كان لاهوتياً لامعاً وعالماً. وأكثر كتاباته كانت بالكرشونية لا بالعربية.

في تلك الأيام، ظهرت شخصية لامعة في حلب، وهي المطران جرمانس فرحات (1670 - 1732). فكان حقاً صانع تجدد المسيحيين الكامل، في مطلع القرن الثامن عشر، على الصعيد الثقافي والروحي والرعوي في آن واحد. وكانت إحدى مهماته أن يعرّب المسيحيين مرة أخرى، فتتلمذ لشيخ مسلم شهير، هو سليمان النحوي، لكي يكون بارعاً في اللغة العربية وآدابها بعد أن تدهور[1].

حرّر المطران كتاب صرف ونحو (بحث المطالب)، أسسه كله على الإنجيل، كما كان المسلمون يؤلفون كتبهم في الصرف والنحو مؤسسين كلها على القرآن. وألف أيضاً كتاباً في طرق الإنشاء العربي يستشهد فيه بأمثلة مقتصرة على الإنجيل. لم يهتم المطران فرحات باللغة العربية في حد ذاتها، بل بصفتها أداة لنقل أفكاره وإيمانه. فجاء ديوانه عملاً أدبياً وتعليماً مسيحياً في آن واحد. لقد عمل على الجمع بين الإيمان المسيحي والثقافة العربية. لقد

(1) دور المسيحيين الثقافي في العالم العربي، ج2، م.س.، ص 40-41.

كان المطران أول كاتب عصري يستأنف هذا النوع من التمرين بعد انقطاع طال أربعة قرون. ولقد جمع فرحات حوله فريقاً من الأدباء المسيحيين، ينتمون إلى جميع المذاهب المسيحية، أصبحوا رواد ذلك التجديد الفكري والثقافي. لمع بينهم أرمني يدعى مكرديتش الكسيح بن عبد الله المخلّع، وأرثوذكسي يدعى سليمان الأسود، وآخرون موارنة مثل عبد الله قرألي. لقد كان جرمانس فرحات الأب الحقيقي للنهضة العربية الثانية، نهضة القرن الثامن عشر، أي النهضة العربية المسيحية التي مهّدت الطريق لنهضة القرن التاسع عشر الكبرى.

د - ردود الفعل في صميم الطوائف الشرقية[1]

«بعد ذلك بقليل، كانت لأكثرية الطوائف الشرقية فروع تصبح كاثوليكية: السريان على عهد البطريرك أندره أخيجان (المتوفى في 1677) والمطران رزق الله أميرخان (المتوفى في 1701)؛ والأرمن في النصف الثاني من القرن السابع عشر؛ والكلدان في العراق، منذ منتصف القرن السادس عشر.

من جهة الروم الأرثوذكس، كان الوضع معقّداً إلى حد ما. ففي 12 آذار (مارس) 1583، أبحر من روما ليوناردو أبيلا، المالطي الأصل، والمطران اللاتيني على صيدا، والمُرْسَل من البابا غريغوريوس الثالث عشر ليحقق اتحاد الطوائف الشرقية بروما. لقي في حلب سنة 1583 البطريرك ميشيل صباغ، فعرض عليه شهادة إيمان فقبل أن يوقّعها، وكتب رسالة خضوع إلى البابا، ورسالة أخرى إلى الكردينال صانتورو (Santoro) في أيار 1586.

وكذلك، كان أفتيميوس كَرْمَه (1572 - 1635)، بطريرك الروم الأرثوذكس، الحلبي الأصل، قد قدم خضوعه لروما، وهذا ما جلب له (بحسب ما صرح به الأب جان أمْيُو

(1) دور المسيحيين الثقافي، ج2، م.س.، ص 42 - 43.

(Ameiu) اليسوعي أن يُسمم بدمشق في 10 كانون الثاني (يناير) 1635 ويموت.

أما تلميذه الحلبي مكاريوس ابن الزعيم، الذي بقي بطريركاً من 1647 إلى 1672، والذي ذهب إلى اسطنبول وجيورجيا وحتى روسيا، ليُنقذ كنيسته، فقد أقام مراسلة طويلة إلى حد ما مع روما، حملت عدة مؤرخين على التساؤل: ألم يكن هو نفسه كاثوليكياً؟ إن هذا البطريرك كان، بلا شك، محباً للكاثوليك؟ ولكنه لم يرغب في القيام بالخطوة لصالح الكثلكة، علماً بأن الكنيسة الكاثوليكية كانت توافق على طريقته، لأنها كانت تتمنّى بالأحرى اتحاداً من كنيسة بكنيسة، لا من شخص بشخص، على سبيل الاهتداء الفردي.

ولذلك، حين توفي البطريرك أثناسيوس دباس في 24 تموز 1742، وهو الذي أدخل إلى حلب مطبعة سورية العربية الأولى، فإن الدمشقيين، الذين، في هذه المرة، كان يعود إليهم حق انتخاب البطريرك، اجتمعوا في أيلول وانتخبوا سيرافيم طاناس، فاتخذ اسم كيرلس السادس وأعلن رسمياً أنه كاثوليكي. عندئذ، أرادت القسطنطينية أن تعيّن بطريركاً معارضاً. ولكنها، لما عجزت عن وجود أسقف عربي واحد كان أرثوذكسياً مئة بالمئة، عيّنت سِلْفسترس القبرصي الذي كان في ما مضى أمين سرّ أثناسيوس».

ابتداءً من تلك الأيام وحتى نهاية القرن التاسع عشر (1898، كان بطاركة الروم الأرثوذكس جميعهم من اليونانيين. واستمرّ هذا الوضع طويلاً في الإسكندرية وأورشليم، مع أن أكثرية المؤمنين كانت من العرب.

إن مردّ ذلك الانتقال إلى الكثلكة هو زخم النفوذ الكاثوليكي في سوريا، بفضل غيرة المُرْسَلين والموارنة، إلى جانب الهيبة التي يمثّلها إلى حدّ بعيد الاحتماء بالأمم المسيحية التي يعترف بها الباب العالي، ولا سيما فرنسا. فالنجاح الذي يلقاه المُرْسَلون الكاثوليك وأعوانهم الموارنة، وتفوّقهم الفكري وإشعاعهم، كانا يجذبان العديد من الأرثوذكس المثقفين إلى روما.

وما كان يبرر ذلك أيضاً، حالة شبه الإهمال الفكري التي كان الأرثوذكس يتخبطون فيها وقتذاك بتلك المنطقة. إذ إن بلاد اليونان التي كانت تحت نير العثمانيين، لم تكن قادرة على القيام بدور روما في تنشئة الإكليروس. ومن بين الدول الكبرى في ذلك الزمان، كانت روسيا وحدها أرثوذكسية، وقادرة على التأثير الطبيعي في الطوائف العربية.

2 - المسيحيون والنهضة العربية في ظل السلطنة العثمانية

21 - توطئة

في القرن التاسع عشر، انتقلت النهضة من الإكليروس إلى المؤمنين، فقد أخذوا يضعون إلى حد ما مسافة بينهم وبين الكنيسة، بلغت التعارض بين بعض المفكرين وبطريركهم. هذا كان الوضع المعروف لفارس الشدياق (1804 - 1888) الذي، بعد أن ترجم الكتاب المقدس لحساب اللجنة الكتابية البريطانية، وعلى أثر نزاع قام بين البطريرك الماروني وأخيه، انضمّ إلى الإسلام (في الحقيقة، بالاسم فقط)، متخذاً اسم «أحمد».

فنشأت حوالي منتصف القرن التاسع عشر، حركة رفض بين المسيحيين العرب، كما تشهد على ذلك وجهة نظر الأب جان فونتين (Fontaine) التونسي. إذ إنهم كانوا يقاومون كنيستهم التي يشعرون بأنها جامدة بإفراط، ويعملون بكل قواهم في سبيل نهضة العالم العربي.

إن حملة بونابرت على مصر، التي تمت ما بين 1798 و 1801 قبل جلوس والي مصر محمد علي باشا على العرش المصري بقليل، قد اثّرت بالعمق في مصر، وفي أبعد من ذلك، في جملة بلدان الشرق الأوسط، على الصعيد الحضاري أكثر منه على الصعيد العسكري، إذ إن الأسطول الإنكليزي هزم بونابرت. وفي أثناء السنوات الثلاث، خلّف نتائج باهرة. ذلك بأنه وصل بفريق يضم 165 عالماً شاباً، يكادون لم يدخلوا في العشرين من عمرهم، وأعضاء في لجنة الفنون

والعلوم، المؤلّفة من مهندسين مدنيين وعسكريين، تخرجوا من المدارس الكبرى (مدرسة العلوم التقنية، مدرسة الجسور والطرق)، ومهندسين معماريين ورسامين وتقنيين وعلماء نباتيين، ومؤرخين ولغويين ورياضيين إلخ. وأقدموا على درس مختلف وجوه مصر القديمة والحديثة.

وفي مدة زمنية وجيزة سجلوا فيها رقماً قياسياً، حدّدوا أرض مصر، دارسين إياها من جميع الوجوه، ورجعوا إلى فرنسا بالمحفوظات العلمية التي جمعهوها في السنوات الثلاث. وطوال 28 سنة، عملوا، بإدارة نيقولا - جاك كونتيه (Conté)، ثم ميكيل آنجِ- لانْكريه (Lancret) وأخيراً إيدمْ - فرنسوا جومار (Jomard)، على تحرير ذلك الأثر الفريد المعَنْوَن وصف مصر، مزيَّن بـ 900 لوحة و 3000 رسم. وبعد نحو قرنين، في السنة 1999، قررت الحكومة المصرية أن تنقل المؤلَّف إلى العربية، وكلّ ذلك يشير إلى فرادة ذلك العمل.

لقد أُخذ أيضاً بما قام به أولئك العلماء. فأدرك أن العلم أصبح اليوم في الغرب الأوروبي لا في العالم الإسلامي، وأُخذ أيضاً بتفوق الفرنسيين العسكري. فصمّم محمد علي أن يجعل من مصر بلداً أوروبياً، وأرسل أشخاصاً للتخصّص في فرنسا في جميع الحقول: الطب، الأساليب العسكرية الحديثة، الحساب والرياضيات التي يجب استعمالها في المدفعية لإصابة الأهداف، والعلوم... وعند عودتهم أقفل عليهم في قلعة القاهرة التي بناها، محرّما عليهم أن يخرجوا منها، ما لم يسجّلوا خطياً بالعربية كل ما تعلموه في الغرب. وبعد الانتهاء من هذا، وضعوا في غُرف خاصة لكي ينصرفوا إلى أعمالهم فقط، جاعلاً منهم «رهباناً مسلمين للعلم».

لقد قام محمد علي باشا، بأولى المحاولات الناجحة في العالم الإسلامي لإرساء التربية والتعليم على أسس أوروبية حديثة. ولم يكن غرضه من وراء ذلك اجتماعياً أو ثقافيا: «بتنمية الاقتصاد المصري لزيادة دخله،

أمل محمد علي بأن يدعم سلطته ويوطّد حكم سلالته في مصر، وفي بلاد الشام والجزيرة العربية إذا أمكن. فانكب على حركته الإصلاحية في الجيش والزراعة والأشغال العامة. وقد شجع العلم والتعليم وأنشأ وزارة ومجلساً أعلى للتربية العامة، كما أسس في مصر أولى المعاهد الحديثة لتعليم الهندسة والطب، استقدم لها أساتذة وأطباء فرنسيين. كما أنه تعاقد مع بعثات عسكرية وتربوية فرنسية. وأوفد ما لا يقل عن 311 طالباً مصرياً إلى أوروبا للدراسة وتحصيل العلوم الفنية الغربية[1]».

والجدير ذكره أن المسيحيين اللبنانيين بدأوا يهاجرون يوماً بعد يوم إلى مصر التي كانت تؤمّن نظاماً منفتحاً على الجميع. فأنشأوا فيها الصحافة العربية، في القاهرة والإسكندرية، قبل أن يعودوا ويمكثوا في لبنان. وأشهر ما أنشأوه: جريدة الأهرام العام 1875، في الإسكندرية على يد سليم وبشارة تقلا، ثم نقلت إلى القاهرة في العام 1895. والمسرح، والقصة التاريخية والشعر غير الموزون (الحديث) والسينما وكل ما هو جديد في العالم الثقافي. وروّجوا أيضاً للصناعات والمصارف، وقاموا بدور طليعي في الاقتصاد المصري[2].

22 - دور المسيحيين في النهضة العربية

أ - النهضة الثقافية

شهد القرن التاسع عشر تقدماً كبيراً في العلوم وتوسعاً في الاكتشافات والاختراعات وقامت الثورة الصناعية الكبرى. كل هذا التقدم كانت أوروبا مسرحه.

تعرف الشرق والعرب إلى هذه المنجزات العلمية من خلال اتصالهم بأوروبا. وقد بدأ هذا الاتصال مع البعثات التبشيرية والتعليمية التي

(1) K.S., Islam, Current Affairs Bulletin XXVI, Sydney, 1962, p 118.

(2) دور المسيحيين الثقافي، ج2، م.س.، ص 47 - 48.

انطلقت من أوروبا باتجاه آسيا وأفريقيا. وقد ورد معنا في سياق هذه الدراسات التاريخية، ما قامت به الرهبنات وخاصة اليسوعية منها، التي أنشأت المدرسة المارونية الشهيرة في روما وتخرّج منها عدد كبير من بطاركة وأساقفة الطائفة المارونية، كالدويهي واسطفان، وعدد من كبار أساتذة اللغات الشرقية في مختلف مدارس وجامعات أوروبا، أمثال الحصروني والحاقلاني والسمعاني. وكان خرّيجوها العائدون إلى لبنان من مؤسسي النهضة الأدبية العربية. كما أن ما أتى به نابليون بونابرت في حملته على مصر، من علماء في مختلف الميادين والاختصاصات، ساهم أيضاً في النهضة العلمية الميمونة وفي المنجزات الثقافية التي ساهمت في بناء هذه النهضة والتي كان للمسيحيين فيها الباع الطويل هي:

(1) المدارس الوطنية

ساهمت المدارس كل المدارس التي أنشأتها الكنائس الشرقية، والرهبانيات المحلية والأجنبية، مساهمة كبرى في النهضة الثقافية. وقد دفعت، بالحركة التربوية في بلاد الشام، سياسة إبراهيم باشا الذي أدخل نظاماً تربوياً شاملاً للتعليم الابتدائي والثانوي، وكان للأستاذ الجراح الفرنسي كلوت باشا الأثر الكبير فيها. والجراح كلوت هذا نظّم الخدمات الطبية لإبراهيم باشا وأجرى تحقيقاً عن الحالة الصحية في بلاد الشام، فأوصى بإيفاد عشرة طلاب من تلك المناطق، منهم أربعة من مسيحيي لبنان، إلى القاهرة لدراسة الطب[1].

وبعد رحيل إبراهيم باشا ووأد الفتنة الطائفية التي أضرم نارها العثمانيون بين 1840 و1861، وحلول المتصرفية، نما التعليم في المشرق وخاصة في بلاد الشام نمواً سريعاً ومضطرداً. ففي عام 1896، بلغ عدد

(1) أنطونيوس، جورج، يقظة العرب، بيروت، 1962، ص 39، 104.

المدارس المسيحية الوطنية 107 مدارس بينما كان عدد المدارس التي أنشأتها الإرساليات الأجنبية يقارب الخمسين[1]. مع الإشارة إلى أن المدارس في نشأتها الأولى كانت توفّر بشكل أساسي، تعليماً دينياً[2]. أما في المرحلة الثانية، أي في أواخر القرن الثامن عشر حتى بداية الأربعينات من القرن التاسع عشر، أضافت المدارس الوطنية المسيحية إلى برنامجها العلوم و اللغة العربية وآدابها، وأشهر تلك المدارس: عين ورقة (1789)، مارعبدا (1830)، ريفون (1833) وقد أسسها الموارنة، وعين تراز (1811) ودير المخلص (1828) وقد أسسهما الروم الكاثوليك.

بعد انتهاء الفتن الطائفية بين 1840 و1860، أنشئت عدة مدارس وطنية منها: المدرسة الوطنية (1863) التي أسسها بطرس البستاني[3]، ومدرسة الثلاثة أقمار للروم الارثوذكس، ومدرسة البطريركية وقد أسسها الروم الكاثوليك، والحكمة (1876) والتي أسسها مطران بيروت للموارنة، وقد خرّجت رجالاً كباراً في اللغة العربية وآدابها وغيره، ومدرسة زهرة الإحسان (1880) الأرثوذكسية وقد أسستها المدعوة مريم جهشان لتعليم الفتيات.

(2) المدارس والكليات الأجنبية

في الوقت الذي وصلت الإرساليات الأجنبية إلى الشرق، كانت الحكومات الأوروبية بدأت تتدخل في شؤون السلطنة العثمانية، خاصة بعد توقيع معاهدة «الامتيازات الأجنبية» (1835)، ضمن إطار ما سُمّي «المسألة الشرقية».

إلى جانب الإرسالية اليسوعية النشيطة، والتي كتبنا عنها سابقاً، بدأ وصول الإرساليات الإنجيلية إلى الشرق منذ العام 1821: إلى القدس ثم

(1) المرجع السابق نفسه.
(2) زيدان، جرجي، تاريخ آداب اللغة العربية، ج4، القاهرة، 1911ـ 1914، ص 46، 47.
(3) بطرس البستاني وأحمد فارس الشدياق، هما من أبرز الكتّاب الذين ساهموا في نهضة اللغة العربية، وكانا من تلامذة مدرسة «عين ورقة».

إسطنبول فمصر فلبنان وسوريا. وقد أتت هذه الإرساليات في بداية الأمر ووزّعت أعمالها بين الوعظ الديني والتبشير وتعريب الكتاب المقدس (بواسطة لبنانيين، منهم إبراهيم اليازجي) وتوزيعه، والطباعة، والنشر والتعريب وإصدار المجلات، وخاصة إنشاء المدارس ومن ثم الكليات الجامعية.

يقول المؤرخ الفرنسي هنري لامنس إن نصف المتعلمين تلقّوا علومهم في المدارس الفرنسية والنصف الآخر في المدارس العثمانية والمدارس الأخرى[1]. أما المؤرخ أنيس زكريا النصولي فإنه يشكك في هذا القول[2].

المهم ليس الاختلاف في عدد المدارس والجامعات إنما يجب علينا أن نبرز وجهات النظر كافة، وعلى القارئ أن يأخذ العدد الذي يريده، والله أعلم.

نشرت مجلة المقتطف التي أنشأها يعقوب الصرّاف وفارس نمر، اللبنانيّيْن، إحصاءً يفيد أنه حتى سنة 1882، كان المرسلون الإنجيليون قد أنشأوا 130 مدرسة في بلاد الشام[3]. وأولها، في عام 1834، أنشأتها زوجة غالي سميث، أحد هؤلاء المرسلين، «مدرسة صغيرة زاهرة للبنات في إحدى غرف دار الإرسالية» في بيورت. وربما كانت هذه المدرسة، التي انضمت إليها أربعون طالبة في سنتها الأولى، أول مدرسة من نوعها في السلطنة العثمانية. وفي الصيف التالي، افتتحت «مدرسة أخرى للبنات الدرزيات في الجبل». وفي الوقت نفسه، افتتحت في بيروت «مدرسة داخلية للصبيان، ستة طلاب»طمحت أن تصبح مع الزمن مؤسسة لتخريج المعلمين و المبشرين. وكانت خمس مدارس يومية للصبيان، بنحو 300 طالب، قد أنشئت حتى ذلك

(1) لامنس، هنري، سوريا، مختصر تاريخي، ج2، عدد2، بيروت، 1921، ص 201.

(2) نصولي، زكريا، أنيس، أسباب النهضة العربية في القرن 19، بيروت 1926، ص 43 ـ 49.

(3) مجلة المقتطف، السنة السابعة، ص 468.

الوقت في بيروت والجبل[1].

ومصادر أخرى تقول، حوالى مئتي مدرسة (1870) في الإمبراطورية العثمانية. وفي عام 1885، وصل عدد المدارس التبشيرية الإنجيلية في السلطنة إلى حوالى 390 مدرسة تضم من الطلّاب حوالي 13800[2]، والله أعلم!

أكانت هذه الأعداد صحيحة أو غير صحيحة، فهي تدلّ على النشاط الذي أبدته هذه البعثات التبشيرية في إنشاء المدارس وتخريج رجال علم كبار ساهموا في تقدم أوطانهم في هذا الشرق الذي طغت عليه السلطنة العثمانية وظلمته على مدى أربعماية سنة من الاستعمار الغاشم.

أما على صعيد التعليم الجامعي، فقد أنشأ الأميركيون «الكلية الإنجيلية» في بيروت وتحوّلت فيما بعد إلى «الجامعة الأميركية في بيروت»، وبدأ العمل فيها في عام 1866، وقد أسّسها المرسل دانيال بلس (Bless) وبلغت في أوج عزها و مجدها في عهد ابنه هوارد بلس. ومجموع ما خرّجته هذه الجامعة من طلاب حتى بداية القرن العشرين حوالى 2213 طالباً، منهم 175 طبيباً و68 صيدلياً[3].

أما فيما يخص التعليم العالي بالنسبة للمرسلين اليسوعيين، فقد نقلوا معهدهم من غزير، قرب جونية في لبنان، عام 1875، إلى بيروت، وسمّوه «كلية القديس يوسف» وأضافوا إليه درجة جامعية بإنشائهم كلية للفلسفة واللاهوت. وفي سنة 1881 أنشئت «رتبة الدكتوراه» على درجتين: دكتوراه جامعية ودكتوراه دولة. بعدها أنشأوا كلية الطب والصيدلة عام 1883، وكانت لجنة الامتحان تأتي من فرنسا

(1) الصليبي، كمال، تاريخ لبنان الحديث، دار النهار للنشر، بيروت، 1969، ص 174، 175.
(2) Jean-Pierre Valognes, Vie et Mort des Chrétiens d'Orient, Fayad, Paris, 1994, p. 86.
(3) الكيالي، عبد الوهاب، د. موسوعة السياسة، «الإرساليات الأجنبية»، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1979، ج1، ص 146.

من أجل امتحان الدكتوراه في الطب عام 1895. بدأت الكلية بتسعة طلاب عام 1883 وفي عام 1905 بلغ العدد 237 وفي 1908، بلغ 313 خريجاً، منهم 220 خريجاً من لبنان وسوريا و93 خريجاً من مصر[1].

(3) المطابع الوطنية والأجنبية

كانت المطابع الأولى، كما سبق وأوردنا في سياق هذه الدراسة، تهتم بطباعة الكتب الليتورجية واللاهوتية، والروحية. وكانت في بدايتها تطبع بالحرف السرياني (مطبعة قزحيا 1610) والأصح بحرف غير عربي. ولم يعرف الشرق مطابع بأحرف عربية، إلا مع بداية القرن الثامن عشر في المرحلة الأولى، التي تمتد من عام 1702 إلى عام 1828، تاريخ إنشاء المطبعة اليسوعية وقبلها الأميركية 1834، كانت هذه المطابع تعمل في خدمة كلمة الله الدينية.

أولى المطابع كانت مطبعة حلب (1706) وكانت تطبع بالحرف العربي. وقد استقدمها البطريرك اثناسيوس الانطاكي من بوخارست. أما عبد الله الزاخم الحلبي أيضاً فقد جمع مطبعته في حلب عام 1702 وأتى بها إلى لبنان، وابتدأ بطباعة الكتب الدينية، في عام 1722. وفي عام 1753، أسس نقولا يونس الجبيلي مطبعته تحت اسم «مطبعة القديس جاورجيوس».

أما في المرحلة الثانية فراحت المطابع تطبع الكتب العلمية والأدبية والفلسفية، مثل مطبعة بولاق في مصر، التي أتى بها بونابرت مع حملته واستخدمها محمد علي باشا بعد رحيل القائد الفرنسي. ومن ثم المطبعة الأميركية التي بدأت في مالطا عام 1822، ثم نقلت إلى بيروت 1834. وأيضاً المطبعة الكاثوليكية التي أنشأها الآباء اليسوعيون في بيروت 1844. كل هذه المطابع ساهمت في النهضة الأدبية والعلمية في الشرق كونها طبعت الكتب التي كانت توصل ما تحتويه من

(1) مجلة المشرق، السنة 11، عدد 5، أيار 1908، ص 341 ـ 354.

علوم أدبية وفلسفية وعلمية إلى أيدي الطلاب. ومنذ العام 1855، تسارعت حركة الطباعة بفضل المطابع المجهّزة تجهيزاً متطوراً، وأهم تلك المطابع حتى عام 1855: مطبعة دمشق (1855) لصاحبها حنا الدواني ـ المطبعة السورية (1857) لصاحبها خليل الخوري ـ المطبعة الشرقية (1858) لإبراهيم النجار ـ المطبعة العمومية (1861) ليوسف شلفون ـ المطبعة الوطنية (1865) لجرجس شاهين ـ مطبعة المعارف (1867) لبطرس البستاني، وقد طبع عليها كتبه: محيط المحيط، دائرة المعارف، ومجلاته الجنان، الجنة، والجنينة ـ المطبعة اللبنانية (1869) لحنا جرجس غرزوزي ـ المطبعة الأدبية (1874) لخليل سركيس الذي كان يطبع عليها جريدته «لسان الحال».

(4) الصحافة ـ المجلات والصحف

كانت الصحافة اليومية منها أو الدورية، السياسية، الأدبية أو الفكرية، من أهم القنوات التي عبّرت بها النهضة العربية المسيحية. كما أنها من أكثر تجليات النهضة وضوحاً. ويعود الفضل الأساسي لهذه النهضة الصحافية، إلى الكتّاب و الأدباء والصحافيين المسيحيين في بلاد الشام (سوريا ولبنان) أو في الخارج، على وجه الخصوص في الديار المصرية، حيث الحرية كانت أوسع وأوفر، إذا ما قيست بباقي السلطنة العثمانية.

وأول دورية عربية صدرت في عاصمة السلطنة كانت «مرآة الأحوال» في العام 1855، لمؤسسها المسيحي الحلبي، رزق الله حسّون. وأولى المجلات أصدرها المرسلون الأميركان في عام 1851، في بيروت، وكانت «مجموع فوائد». وأول مجلة مصورة كانت في عام 1863، في بيروت واسمها «أخبار عن انتشار الإنجيل». وفي سنة 1892، أنشأت هند نوفل مجلتها «مجلة الفتاة» في مصر. وفي ما يلي أهم المجلات والدوريات التي أصدرها المسيحيون في الشرق الإسلامي:

اسم الدورية	اسم المؤسس	مكان التأسيس	تاريخ التأسيس
1 ـ الجنة	سليم البستاني	بيروت	1870
2 ـ الجنان	بطرس البستاني	بيروت	1870
3 ـ النحلة	القس لويس الصابونجي	بيروت	1870
4 ـ المقتطف	يعقوب الصراف + فارس نمر	بيروت	1870
5 ـ البشير	اليسوعيون	بيروت	1870
6 ـ النشرة الأسبوعية	الإنجيليون	بيروت	1871
7 ـ النجاح	القس لويس الصابونجي+ يوسف الشلفون	بيروت	1871
8 ـ الأهرام	سليم وبشارة تقلا	الإسكندرية ـ مصر	1876
9 ـ مصر	أديب إسحاق	القاهرة	1877
10 ـ لسان الحال	خليل سركيس	بيروت	1877
11 ـ مصر الفتاة	أديب إسحاق	الإسكندرية ـ مصر	1879
12 ـ الشفاء	شبلي الشميل	القاهرة	1886
13 ـ المقطم	صروف + نمر + مكاريوس	القاهرة	1888
14 ـ الهلال	جرجي زيدان	القاهرة	1892
15 ـ البيان	إبراهيم اليازجي	القاهرة	1897
16 ـ الضياء	إبراهيم اليازجي	القاهرة	1898
17 ـ المشرق	الأب لويس شيخو اليسوعي	بيروت	1898

ب ـ روّاد النهضة المسيحيّون

من أوائل هؤلاء الرواد الذين ساهموا مساهمة فعّالة في النهضة الفكرية والثقافية العربية: الشيخ ناصيف اليازجي، من بلدة كفرشيما في لبنان، قرب وادي شحرور (1800 ـ 1871) وولده الشيخ إبراهيم (1847 ـ 1906).

وُلد الشيخ ناصيف، كما قلنا، في كفرشيما. وقد شغف منذ صباه بمطالعة الكتب اللغوية والأدبية، وذاع صيته في ميدان الأدب. عيّنه الأمير بشير شهاب، أمير لبنان، كاتباً عنده وهو في الثامنة والعشرين من العمر، فبقي حوالي 12 سنة، انتقل بعدها إلى بيروت. اشترك في تصحيح اللغة العربية وتنقيحها لبعض أسفار العهد القديم من الكتاب المقدس التي ترجمها المرسل الأميركي القس عالي سميث. أشهر مؤلفاته «مجمع البحرين» و«فصل الخطاب في الصرف والنحو» و«جوف الفرا» في أصول النحو أيضاً، و«عقد الجمان في النحو والبيان» و3 دواوين شعرية. توفي في السنة 1871 بعدما أصيب بداء الفالج.

فإذا كان الفرع الطيّب من الأصل الطيّب، وإذا كان الابن سرّ أبيه، فالشيخ إبراهيم اليازجي هو ابن الشيخ ناصيف. وُلد إبراهيم في بيروت العام 1947، وتلقّى علومه اللغوية والأدبية على يد والده، ثم التحق بمدرسة اليسوعيين في غزير سنة 1872، وتعاون معهم في ترجمة العهد القديم، واشترك سنة 1884 في تحرير مجلة «الطبي» في بيروت، ورحل سنة 1885 إلى مصر حيث أسس مجلة «البيان» السنة 1897، فمجلة «الضياء». توفي سنة 1906.

ومن رواد النهضة الفكرية، المعلم بطرس البستاني (1819 ـ 1883) الذي عاون الدكتور كرنيليوس ڤان دايك على إنشاء مدرسة عبيه في السنة 1846، وتولّى وظيفة الترجمة في قنصلية أميركا. وعاون القس عالي سميث في ترجمة معظم أسفار العهد القديم. وألّف قاموسيه «محيط المحيط» و«قطر المحيط» في اللغة العربية. في العام 1870 أنشأ «المدرسة الوطنية» وعاونه ابنه سليم. وفي سنة 1870، أنشأ

صحيفة «الجنان» وجريدة «الجنة»، وعام 1875، شرع بتأليف «دائرة المعارف». توفي سنة 1883.

ومن الروّاد أيضاً سليمان البستاني (1856 ـ 1925) وأحمد فارس الشدياق (1804 ـ 1897) وهو أحد أربعة في تاريخ الأدب العربي، وقد يكون فذاً من أفذاذ العالم أجمع في كتابين: الفارياق وسرّ الليالي[1]. والمؤرخ والأديب نقولا الترك (1763 ـ 1828) الذي ألّف في التاريخ والأدب، فكتب تاريخ نابليون بونابرت وأخبار أحمد باشا الجزار. والمعلّم إلياس إدّه (1741 ـ 1828) وبطرس كرامه (1774 ـ 1851) والأديب الحلبي فرنسيس مرّاش (1835 ـ 1874) وأخوه عبد الله مرّاش (1839 ـ 1900) ورزق الله حسّون الحلبي (1835 ـ 1880) وميخائيل مشاقة (1800 ـ 1888).

والجدير ذكره أن المثقفين المسلمين، في عصر النهضة العربية، أخذوا من أوروبا العلوم السياسية والعلمية والعسكرية والفلسفية وغيرها فاقتصرت عملية «الاستعارة» من الغرب على الجوانب التقنية فقط، بينما شكّلت أوروبا للمثقّفين المسيحيين موطن الحضارة من حيث فكرها، ولم يضع هؤلاء إلا القليل من الحدود لما يمكن أن يستعيروه من الغرب.

لقد كانت القضية المركزية للمثقف المسيحي، هي العثور على موقع في التاريخ خارج العالم الديني، فكوّن المثقفون المسيحيون موقعاً علمانياً حاولوا من خلاله أن يوفقوا بين النظريتين المسيحية والإسلامية[2]. لقد اعتنق المثقّف المسيحي قيم الغرب المتنوّر مثل: المساواة والحرية والأخوة والعقلانية والاستقلال الذاتي للإنسان والعلمانية والاشتراكية إلى آخره.

كان العديد من المثقفين المسيحيين في عصر النهضة، رواداً

(1) عبود، مارون، «أحمد فارس الشدياق»، في مجلة الكتاب، ج2، 1946، ص 587 ـ 606.

(2) شرابية، هشام، المثقفون العرب والغرب (عصر النهضة العربية 1875 ـ 1914)، ط4، دار النهار للنشر، بيروت، 1991، ص 73.

لطرح العلمانية في المجتمعات العربية. ولطرحهم هذا وجهان: الوجه الأول يتجلّى في دعوتهم إلى بناء قومية عربية حيث لا يكون الرابط الديني بل اللغة والأرض و التاريخ والمصير المشترك. أما الوجه الثاني فهو فلسفي يتجلّى بفصل الدين عن الدولة؛ لأن المجتمع المدني يقوم على مساواة مطلقة بين جميع أبناء الأمة، مساواة تتعدى الفروق في الأديان. في المقابل، عرف الشرق نماذج أخرى من الحضارة التي ابتعدت عن النظام العلماني(1).

أما في مصر فقد عرفت البلاد نموذجي حضارة، أولهما مسلم والآخر مسيحي، وبقي الإسلام عنصراً أساسياً مكوّناً للقومية العربية. ولذلك ظهرت في لبنان فكرة التماذج المسيحي - المسلم. وفي مصر ظهر التيار الطائفي على يد بعض المثقفين الأقباط، مثل ميخائيل عبد المسيح الذي أنشأ صحيفة «الوطن» عام 1877، كما برز هذا الاتجاه في صحيفة «مصر» التي أنشئت عام 1895. وفي الدلالات أيضاً للتماذج الحضاري في الديار الإسلامية بين المسيحي والمسلم، تأسيس جمعية «الإصلاح القبطية» في القاهرة عام 1908، التي هدفت إلى توثيق الصلات ما بين جميع الفئات المصرية، وفي الوقت نفسه الدفاع عن حقوق الأقباط. وبالفعل قابل وفد من الأقباط، بزعامة أخنوخ فانوس، الخديوي في مطلع العام 1908 وطلب منه إزالة الفوارق بين الأقباط المسيحيين والمسلمين.

الخاتمة

قبل نهاية الحكم العثماني بعقدين أو أكثر بقليل، أي منذ نهاية القرن التاسع عشر، ترجم المثقفون المسيحيون في العالم العربي التزامهم الفكري النهضوي بالدعوة إلى استقلال بلدانهم العربية الأم، وتوفير الأطر السياسية الأكثر ملاءمة لتأمين وحدة شعوبها وانصهارهم في انتماء وطني

(1) انطوان، فرح، ابن رشد وفلسفته، القاهرة، 1903، ص 151 وما بعدها.

وقومي يعلو على جميع الانتماءات الدينية والمذهبية والعشائرية؛ فانخرطوا في الجمعيات والأحزاب السياسية، السرية والعلنية، وناضلوا تحت غطائها حتى تفكّكت السلطنة العثمانية تفككاً نهائياً. بعدها أكمل المسيحيون التزامهم بمجتمعاتهم وتابعوا نضالهم في معركة ثانية، هي معركة التحرر من الاستعمار الأوروبي، الذي خلف الحكم العثماني على بلدانهم - فرنسا في لبنان وسوريا، وإنكلترا في فلسطين والعراق ومصر.

وباختصار كلّي نقول: إن ما قامت عليه قوة المسيحيين في العالم الشرقي الإسلامي، هو أنهم كانوا بوجه عام أناساً منفتحين على ثقافات غير ثقافتهم، مع التأصل في ثقافتهم الخاصة، إذ إن التأصل والانفتاح هما الميزتان اللتان قد [illegible] تاريخ النصارى في هذا الشرق بعد عام 632. وإذا نقص أحد العنصرين، غاب التفاعل مع البيئة المحيطة، وبالتالي غاب التجدد لصالحهم ولصالح تلك البيئة.

لقد قام المسيحيون بدور الجسر بين الديانتين والعقليتين والثقافتين، كما أنهم نقلوا ثقافة الغرب إلى المسلمين العرب وثقافة العرب المسلمين في الشرق وأعرافهم، إلى الغرب المسيحي. لقد طبّق نصارى الشرق، منذ وصول الإسلام إلى ديارهم، قول القديس بولس الرسول: «ليس المقصود أن نحتفظ بشيء من الأشياء لأنه يأتي من الخارج، أو أن ننبذه للأسباب نفسها...».

* * *

الفهرس

القسم الأول
المسيحية من العصر الفاطمي
إلى العصر الأيوبي
(969 ـ 1250)

القسم الثاني
الحضارة المسيحية ودورها في العهدين المملوكي والعثماني